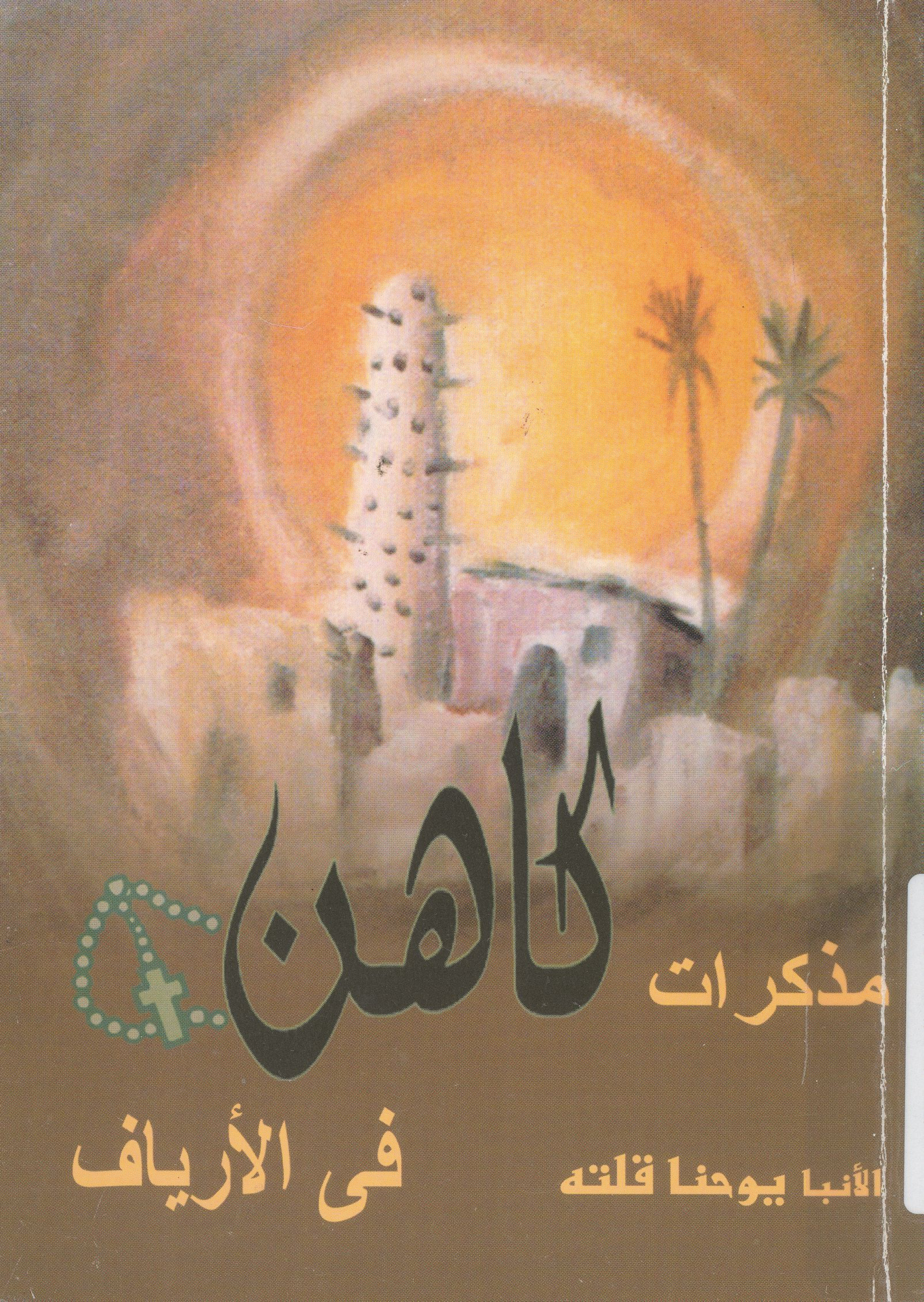

مذكرات
كاهن
فى الأرياف
الأنبا يوحنا قلته



يرويها

الأنبا يوحنا قلته

لوجوس

الكتاب : مذكرات كاهن في الأرياف

الكاتب : الأنبا يوحنا قلته

الجمع والإخراج الفني والطباعة

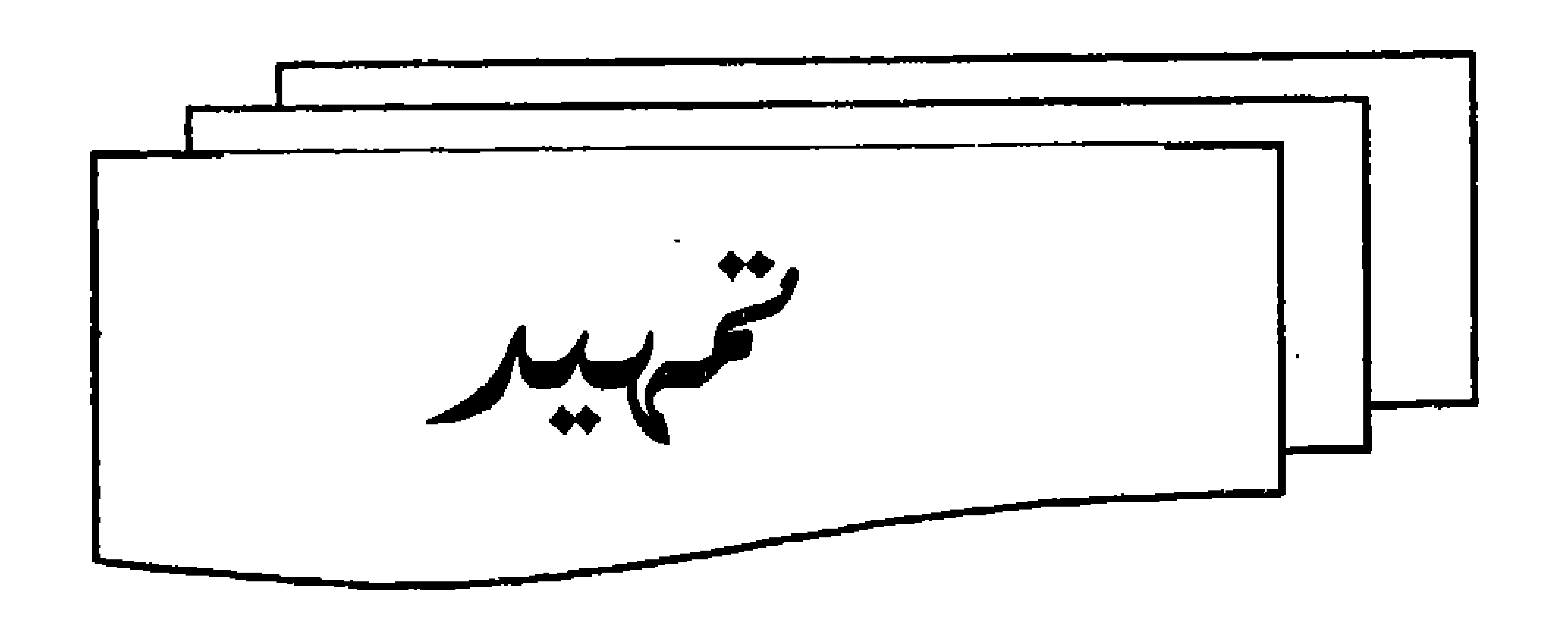
لوجوس سنتر

تليفون / فاكس ٢٩٠٦١٦١
ص. ب. ٢٤٥٥ الحرية
هليوبوليس - القاهرة
Email : Logoscenter@ yahoo.com
www.logoscenter.net

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٤٤٢٩

الترقيم الدولي : 1- 67 - 5607 -977

المحتويات



الإيمان ليس نظرية فلسفية، والعقيدة التي لا تعاش، تموت، والحياة نـــهر متدفق، ولا ينبغي أن نظل كسالى بل علينا أن نسبح في نهر الأيـــام، حـــاملين الرجاء والثقة، والمسيحية، رائعة رائعة، وهل أروع من أن الله وهو من الأبـــد إلى الأبد الله، قد لبس طبيعتي الإنسانية من أجلي حبـــاً وتواضعـــاً.، وعـــاش حياتي، وشرب الماء الذي أشرب منه، وأكل الزرع والحيوان الذي آكل منـــه، وتألم مثلي، وذاق العذاب ونكران الجميل، وابتسم للطفولة، وشارك في الفرح، وبكى أمام سطوة الموت هل هناك أروع من المسيحية التي تقوم على المســـيح المنتصر على الموت، القدوس، الإله الإنسان، آه لـــو أدرك المســـيحي ســـمو دعوته وكمال مسيحه، آه لو لمس المسيحي جمال ابن الله المتجسد آه لو تـــأمل المسيحي بهاء أخلاق المسيح، وتوهج فكره، ونبل مسيرته!! لم يلتق به زكا إلا مرة واحدة، قلبت حياته من موظف مرتش، لص لمال الأرامل والأيتام، منـــافق للأقوياء ورجال الدين، متعبد في محراب المال، كان غنياً، ورئيساً، وقصـــير القامة أي شديد الذكاء النقي بالمسيح، تبدل تحول، وعلـــى أســـلوب الأخـــوة، تخلص، إنما خلاص حقيقي، ثابت، عميق، هل أعطي أمثلة أخرى، ليس هنـــا المجال المناسب في هذه المقدمة العابرة.

هذه مذكرات كاهن في الأرياف، ليست كلمات بل هي بعض من حيـــاة، هي نبض الزمن في قلب خادم للإنجيل، هل صدى لقاء نعمة المسيح بخطيئـــة الإنسان، هي خبرة إنسان ضعيف حاول أن يحيا بقوة المسيح – لم يكن ملاكـــاً ولم يكن غارقاً في الإثم، وإنما عاش مجتهداً، مؤمناً، قذف به رؤســـاؤه إلـــى

قرية مجهولة، تغرق في الجهل، والفقر، والمرض، مثل أربعة آلاف قرية مصرية، مبعثرة حول النهر الفضي، شريان الحياة، بعضها ملقى في وسط الحقول النضرة، يلفها جمال هادئ رقيق، تحتضنها الأشجار الباسقة، تطر بها أصوات السواقي، وتبدو فيها أبراج الحمام كمنارات تطير من فتحاتها الأطيار الوديعة، تزدحم حقولها بالقمح والذرة والقطن والقصب لكن فلاحها فقير معدم مطحون، يتعب وغيره يجني الثمر، يشقى ليترف غيره، يمد المدينة بالخبز الأبيض وهو يعيش على الخبز الأسمر الجاف أغلب الفلاحيين في تلك القرى راضٍ بقليله، يمتلك سعادة البؤساء أهل القناعة أن كان للعبارة معنى، سمات الفلاحيين من عهد رمسيس الثاني ومن عهد كليوبطرا، ومن عهد البطريرك بنايمين ومن عهد عمرو بن العاص تغيرت سمات الفقر، وملامح البؤس، ومظاهر الظلم وبقى الفلاح القرون الطول، المظلوم والمطحون والصامت.

بعض القرى لا تدري لماذا رقدت تحت سفح الجبل، من آلاف السنين أهلها يعيشون الكفاف من مصدر ضئيل يأتيهم من المهن اليدوية، في وجوههم لفحة الشمس التي كستها بلون أسمر كلون طمى النيل، أجسادهم نحيفة صلبة، ويعلم الله أنها تطابق تلك الأجسام التي خلدتها يد الفنان النحات في مجد الفراعنة على جدران المعابد، لا تدري من الأثيم الذي قسم القرية المصرية إلى حي للمسلمين وحي للمسيحيين، كأنها دولتان صغيرتان، لكل منها شرع خاص، وتقليد لا تنحرف عنها، لا يربطها سوى سلطة العمدة، وأحياناً تجمع بين عشائرهما الأعراس أو المآتم، عالم عجيب، عالم القرية المصرية، يحمل وجدان آلاف السنين، بكل ما زخرت في إيمان وأساطير وعادات، لكنه يتطلع إلى العالم الحديث والحضارة والثراء، عنده خزين في أعماقه من حكمة الزمان وخبرة في العلاقة بين الشعوب، وعنده طاقة روحية فياضة لا تجف، ولكنه يمتلأ بالرغبة في الحياة، وأطايب الدنيا، روحي النزعة شهواني الوجدان، ابن نكتة وعبث وسخرية، وما يحز في النفس، أن القرية لم تزل حتى اليوم أقرب إلى مكان العقاب والتعذيب، يبعث إليها رجال الدين في بداية حياتهم الرسولية، ليتمرسوا على العمل الروحي بين أبناء الريف البسطاء، كما يبعث إليها

الأطباء والمعلمون والموظفون الذين ليس لهم وسيط فعال في دائرة اتخاذ القرار أن القرية العقل الباطن للمجتمع العربي وبخاصة المصري، ليست إلا مكانا يتدرب فيها قليلو الخبرة، متوسطو الثقافة، الذي هم ليسوا من أهل الخطوة، أنها لا تزال هي المنقي أو أقرب إلى المنفى، أقرب إلى الشيء المهمل في حساب المجتمع وما أعظم هذه الجريمة التي أشار إليها منذ ما يقرب من سبعين سنة المفكر المصري الأصيل طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر، وأصر على أن يكون المبعوثون إلى القرى هم صفوة الأذكياء والنابهين والعلماء أن شئنا الحضارة والترقي والعدل والمساواة، وضاع الصوت الصارخ في برية الأنانية والجشع وفي ظلام خلا من الرؤى المبدعة المتوهجة هذه المذكرات كتبتها الحياة، في مسيرتها لم تخترع من خيال ولم تزيف وليست فيها نفاق أو رياء، أنها أحداث صادقة أمينة دقيقة، وشخصياتها حقيقية، كما أن أفراحها وأحزانها انبثقت من واقع الحياة، لقد تجمع ذلك كله في عقل كاهن وأختزنه وجدانه وفاضت به روحه وسطره قلمه فأن لم يكن من فائدة لهذه المذكرات، فيكفي أنها تصور حقبة من مسيرة القرية المصرية وتقدم نموذجا للكرازة بالإنجيل بين أبنائها..

الحياة تنسج التاريخ

والتاريخ ينبض بوجدان الإنسان والمفكر يقدم الرؤية والحس والأمل.

المؤلف

مذكرات كاهن في الأرياف 1

أيها القارئ الكريم، اسمح لي أن أصحبك خلال الصفحات القادمة في رحلة إلى رحاب التاريخ، وفي مسيرة إلى الماضي، لعل في ذلك عبرة. وأعدك بأن أكون صادقاً دقيقاً.. الأحداث وقعت بين (١٩٦٠- ١٩٦٣).

الأنبا يوحنا

أستلم الكاهن الشاب (٢٣ سنة) خطاب التعيين من رئيسه. ولم يكن الأمر مفاجأة. فقد تسرب خبر نقله من إيبارشية القاهرة إلى إيبارشية المنيا. لقد ورثنا تقليداً مصرياً، يبدو أنه فرعوني المنبت والأصل. وهذا التقليد أرسى قواعد تعيين الكهنة والأطباء، والموظفين الجدد في القرى النائية والكفور المهملة، ولا سيما من لم يكن محظوظاً أو مقبولاً عند الرؤساء، ولا زالت فكرة "النفي" إلى الصعيد لوناً من ألوان التأديب والإصلاح. فهؤلاء الفلاحون البسطاء لا يحتاجون إلى علماء وإلى قديسين، يكفيهم كاهن جديد لا خبرة له ولا تجربة. يؤدي لهم الطقوس وعليهم أن يعلموه ممارستها وأن يكسبوه خبرة الرعاية وفن الرسالة، ذلك بالرغم من دعوة المفكرين العباقرة إلى إرسال أفضل العناصر الشابة إلى الريف، نادى بذلك طه حسين. وأصر (كتاب: مستقبل الثقافة في مصر) على أن الريف لن ينهض إلا إذا أهتم به مثقفون على درجة عالية من الثقافة، ولكن ما العمل والتقليد راسخ، إن الأرياف منفي وعقاب وتهذيب..

أستلم الكاهن الشاب أمور الرعاية في قرية اسمها (بردنوها) وهو لفظ قبطي قد يعني "المظلمة، أو المخيفة"، وتقع أقصى شمال محافظة المنيا- مركز مطاي.

القرية الكبيرة يسكنها عشرة آلاف من المسلمين والمسيحيين مناصفة، وتشتهر بتربية النحل وتصديره إلى باقي المحافظات لم تكن بها إلا مدرسة ابتدائية فأهلها لم يشعروا بالحاجة إلى العلم، فقد عرفوا بشيء من الثراء جراء عسل النحل، وشدة خصوبة الأرض الزراعية في هذه المنطقة، وكان بها كنيسة من أجمل كنائس مصر- بناها مهندس إيطالي ورسم لوحاتها فنان إيطالي جلبهما العمدة القبطي، وكأنها جوهرة لامعة يحيط بها أكواخ الفقراء المطحونين.

أما الكنيسة الكاثوليكية والتي ترعى مئات قليلة من أبناء القرية فلم تكن إلا كوخاً كبيراً متهالكاً، (الحمد لله فقد بنيت كنيسة جديدة).

وصل الكاهن إلى بيت الرعية، مبنى من الطابق الأول هو الكنيسة العجوز، والطابق الثاني حجرة واحدة أمامها مكان استقبال. تذكرك رائحة المبنى بالآثار المصرية القديمة، تسرح وتمرح الحشرات فيها بدون خوف أو حياء، أكوام القش على أسطح الأكواخ. وروث البهائم المجفف وهو الوقود الضروري لمتطلبات الحياة اليومية، لم يجد أثاثاً أو ماء أو كهرباء (كان الأمر سنة ١٩٦١). راديو البقال المقدس رزق الله، لا يكف عن الصراخ... كان القرويون البسطاء يأكلون أحلاماً، ويعيشون بالأحلام. فالمجد آت. والمسلمون والمسيحيون، وحدة وطنية أقوى رابطها حاجتهم الملحة للخروج من العصور الوسطى، الفقر يطحنهم والبؤس يهزم أرواحهم وأجسادهم، والغشم في عبد الناصر، والقرية لم تتغير منذ رمسيس الثاني في منازلها. في تقاليدها، في أخلاقها والقبور ملاصقة للمنازل، فالحياة كالموت في القرية لا يفصل بينهما إلا أنفاس أجساد هزيلة.

****

الكنيستان متجاورتان، والشعب القبطي راضٍ بما قسم له أن يعيش ممزقاً إلى مذاهب، لا يعكر صفو الأشقاء إلا مجادلات مذهبية جوفاء، ولا يبدو أي اختلاف بينهما إلا يوم الأحد حين يذهب كل إلى الكنيسة التي يصلي بها أو قل

إلى الكاهن الذي يرضى عنه- أقصد- أن يرضى المسيحي على الكاهن، والتنقل بين الكنيستين أمر عادي بين أفراد الشعب ولكنه أمر يثير غضب الآباء الكهنة.

****

جاء أمر من المطرانية بالمنيا عن طريق تليفون العمدة، يأمر الكاهن الجديد بالذهاب للصلاة في كنيسة أبوان القرية المجاورة التي تبعد بضع كيلومترات عن بردنوها لأن كاهنها قد نقل للعلاج لشهور عديدة.

ازدحمت الكنيسة بشعب الرعية لمعرفة الكاهن الجديد، والتطلع إلى هذا القادم من القاهرة. وأطال الكاهن الألحان متجاوباً مع فريق الشمامسة ليدلل على انه صاحب باع طويل في شؤون الطقوس والألحان القبطية. لم يكن استقبال أفراد الشعب حماسياً فقد تعودوا على تنقلات الكهنة بدون معرفة الأسباب والدوافع فهذه من أسرار المطرانية، ولكنهم تشككوا في أن يستمر معهم هذا الكاهن القادم من بعيد. فالحنين إلى أهله والسعي إلى القاهرة الكبرى والحياة في الريف. أمور تدفع الكاهن إلى الرغبة في التنقل أو في الترقي.

أعلن الكاهن في نهاية القداس انه في حاجة إلى حمار "الوسيلة الوحيدة المتاحة للوصول إلى أبوان". فبرز من بين الصفوف الأمامية المقدس بطرس وهو رجل في السبعين من عمره كاثوليكي متمسك بمذهبه متحمس لكنيسته يحب البطريرك الكاثوليكي وبابا روما دون أن يراهما أو أن يعرف عنهما شيئاً.

قال عم بطرس: الحمار جاهز يا قدس أبونا ولم تمض دقائق بعد انتهاء الصلاة. حتى جاء عم بطرس بحمار أسود، أكل عليه الدهر وشرب، متهالك عجوز. مريض، لا يكاد يرفع رأسه وكان الكاهن قد عرف من الناس، والقرية

لا تعرف الأسرار والاحتفاظ بها، عرف أن لعم بطرس حمارين، واحد أبيض، شاب حصاوي، قوي، كأنه فرس صغير، وآخر أسود مريض.

سأل الكاهن المقدس بطرس: لماذا أتيت بالحمار الأسود المريض. قال عم بطرس: وقد حفظت الذاكرة هذه العبارة خلال أربعين عاماً. ولست أدري لماذا لم تمح مع الذكريات التي طواها الزمن: يا قدس أبونا.. أنا أحضرت الحمار الأسود علشان يبقى الطقم واحد، أنت لابس أسود، وهو أسود، لم ينطق الكاهن بكلمة، ولكنه تعلم فناً من فنون تفسير الأحداث، والخروج من المطبات.



من أروع التقاليد القبطية التي ورثناها عن أجدادنا وعن قديسي كنيستنا تقليد تضمن تعليماً لاهوتياً ولوناً من ألوان تفسير سر الفداء، ومعنى وحدة الجسد السري، رأسه المسيح وكل مسيحي عضو فيه، تعليم فيه عمق وبساطة وفيه سر وقوة.

هذا التقليد يقوم على جمع حبات القمح في زمن الحصاد، والقمح من أثمن الحبوب ومن أجملها طعماً وشكلاً، كل عائلة تجود به بقدر طاقتها، فيعطي القادرون شوالاً أو كيلة أو قدحاً والفقراء يقدمون حفنة أو طبقاً ويجمع ذلك كله في صومعة الكنيسة أو في صومعة أحد المؤتمنين على أموال الوقف، ليخبز منه القربان على مدار أيام الآحاد والأعياد خلال العام، ويوزع القربان مجاناً ومنه يؤخذ قربان الحمل الذي يتحول بكلمات التقديس إلى جسد المسيح، وخبز القربان والحمل له طقوس وله خاتم يحفر عليه رمز جراح المسيح، ورمز الرسل الاثني عشر، وله نكهة طيبة مميزة يختلف بها عن نكهة الخبز وأغلب الظن أن فن الحفر قد برع فيه الفراعنة وأبناؤهم المصريون وورثتهم الأقباط ولدينا تراث فرعوني وقبطي يبهر العالم من دقة الحفر على الحجر والزحام والخشب والذهب وعلى الخبز، إنها إحدى صور عبقرية شعب وادي النيل.

يصوم الفلاحون البسطاء من منتصف ليل السبت إلى صباح الأحد، لا يقربون طعاماً ولا يشربون ماء، استعداد للتناول المقدس، وبعد القداس يكون القربان الذي يوزع عليهم هو إفطارهم قبل العودة إلى البيت، وأي رمز أجمل وأعمق من هذا الرمز إذ يتحد أهل القرية في لقمة البركة كما يتحدون بجمع القمح، فالقربان من قمحهم وخبزهم رمز الوحدة في شخص المسيح الفادي،

والمساواة حين يطعمون خبزاً واحداً والوحدة في الإيمان والرجاء وقد اتحد جسد المسيح في القربان الذي نأخذه في سر التناول.

ترى ألا تزال القرية حافظة لهذا التقليد أم أن، غلاء العيشة علمنا الحرص وربما حلت الأفران الآلية ورفع سعر الرغيف محل إعداد الخبز في البيوت، كما تقلصت زراعة القمح مع زيادة مطردة للسكان، فأصبحنا مستوردين القمح من الدول الأخرى بعد أن كانت مصر سلة الخبز للإمبراطوريات اليونانية والرومانية والإسلامية، وهل من أمل في إعادة هذا التقليد بطريقة عصرية تنسجم مع الحياة!!

حان وقت التناول قبل نهاية القداس، تقدم العم ميخائيل وقد تناثرت من فمه رائحة الفول والبصل، تردد الكاهن الشاب قبل أن يسأله في صوت خافت:

أنت فطرت يا عم ميخائيل.

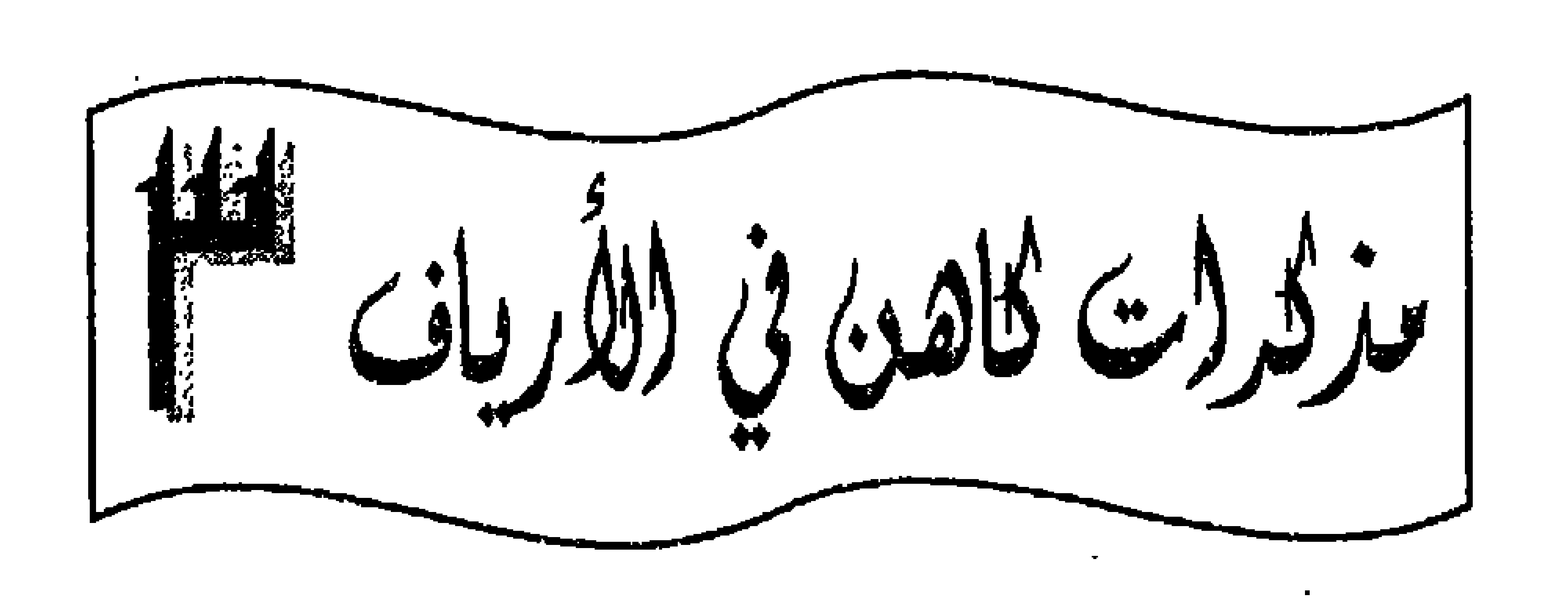
أجاب في غير حرج أو قلق وبتلقائية بريئة: أيوه أنا فطرت وعاوز أتناول، أنا راجل فوق الستين بارجع من الغيط الساعة الخامسة بعد الظهر، أتعشى وأنام مهدود، إزاي أقدر أصوم لغاية بعد القداس والساعة واحدة بعد الظهر وقداسكم طويل وشمامستكم بتلحن والعريف حافظ كتير، أجيب منين صحة وصبر عايز تناولني وأنا فطران يبقى كتر خيرك، مش عايز أرجع مكاني وكفاية إني حضرت القداس أربع ساعات.

كان الحوار بصوت عال ويسمعه كل من في الكنيسة، تبسم البعض، وامتعض البعض، وبعد حيرة بدت في عيني الكاهن الشاب قدم له المناولة دون أن ينبس بكلمة.

خشى الكاهن الشاب أن يتسرب الخبر إلى المطرانية كما خشى أن يكون قد سبب عثرة للناس البسطاء ولكنه أثر الصمت لعله يعد دفاعاً محكماً إذا سائله المطران، ومن أعجب الأمور أن الناس لم تلمس في ذلك عثرة أو خطأ وأدرك الكاهن عمق إيمان الفلاحيين وسعة أفقهم في الأمور الدينية والروحية.

ولكن الأمور لم تمض في يسر فقد عرف القاصي والداني أن الكاهن الشاب القادم من مصر يكسر قانون الصوم وعرف من كاهن زميل له يمت له بصلة قرابة، أن المطران غاضب أشد الغضب.

ولكن الله سلم، إذ لم تمض أيام حتى أعلنت الكنيسة الكاثوليكية رفع قانون الصوم من منتصف الليل، واكتفت بفرض صوم لمدة ساعة فقط قبل التناول، وكان قداسة الباب في روما، ومجمع الإيمان واللجان اللاهوتية قد سمعت بحكاية العم ميخائيل في بردنوها ورأفت بحاله، وأنقذت الكاهن الشاب من ورطة، صدق القول كشف أسراره لمحبيه للبسطاء والأتقياء.



مضى شهر والكاهن الشاب يحاول تطبيع حياته في القرية، أعـد سـكنه بقدر ما استطاع، لم يستطع أن يتخلص من السرير العتيق لأنه عهده فأشـترى كنبة "أسيوطي" وأعدها أعداداً جيداً، والأمر الغريب أنه حتـى اليـوم وبعـد أربعين سنة لا يزال يحن للنوم على هذه الكنبة ويبدو أن علاقة حميمة تتـأصل مع الزمن بين الأشياء وبين الإنسان، وجمع بضع كتب حملها معه من القـاهرة يذكر منها الكتاب المقدس طبعة الأباء اليسوعيين وقد عشق عشقاً هذه النسـخة لأنها أهديت له يوم أن سيم كاهناً، وعشقه لهذه النسخة ليس لأنها عمل عظيـم للأباء اليسوعيين أساتذته ومعلميه بل لأنها ترجمة عربية من أجمل ما كتـب العالم الأديب اليازجي أنها قطعة من الأدب والشعر وأصالة اللغـة العربيـة، وأحتفظ بكتاب الاقتداء بالمسيح، لم يذكر المؤلف اسمه، تواضعاً وزهداً وهـو أنشودة روحية في كلمات شبه موحاة وبضع كتب في الأدب العربي يذكر منها ديوان أبي العلاء المعري وقد حفظ كثيراً من أشعاره يردد معه البيت الخالد

غير مجد في ملتي واعتقادي　　نـوح باك أو ترنيم شاد

خفف الوطء فمـا أظن أديم　　الأرض إلا من هذه الأجسام

يذّكره ذلك بقول سليمان الحكيم: باطل الأباطيل وكل شئ باطل وللحـق ينبغي أن يذكر أن الحياة في القرية غرست في أعماقه نوعاً من النسك والزهد فتعلم حتى الآن أن الأشياء ليست مصدراً للسعادة، فسرير من الذهب لا يجلـب النعاس، وتعلم من حياة الفلاحين أن السعادة لها مصدر هو فن الاستغناء أو فن القناعة أو ما يسميه الرهبان حياة البساطة والفقر، ولا يذكر يوماً أنـه شـعر

بتعاسة لأنه لا يملك مالاً ولا يملك نفوذاً، لقد تعلم من القرية أموراً كثيرة لعل منها كيف يفجر سعادته من أعماقه من حب الناس، من عمل الواجب؛ مكتفياً بما يمتلك من القليل، مضى شهر وحان موعد "الرياضة الشهرية للكهنة" وهذا تقليد روحي في الكنيسة الكاثوليكية، يلتقي الكهنة برئيسهم المطران- خليفة الرسل- وقلب الكنيسة ليستمعوا إلى تأمل أو عظة ثم يقيمون القداس مع المطران وبعده يطعمون الغذاء على مائدة المطران كان اليوم أربعاء، ركب أتوبيساً يطلق عليه "سانت كروفت" ينقله إلى مطاي (المركز) والحديث عن هذا الأتوبيس يحتاج إلى صفحات، فهو ليس أتوبيساً تماماً، وليس سيارة على الإطلاق، إنما هو صندوق ضخم كان يوما أتوبيساً لم يتبق منه إلا الموتور يسمع صوته من أقصى القرية إلى أقصاها، المقاعد خشبية قد تمزق الجلد الذي يغطيها، النوافذ بلا زجاج، يسير راقصاً متهللاً كواعظ أمريكي تارة يحتك بالأرض المرتفعة وتارة يصدر أصوات حشرجة والسائق يغني والفلاحون مكدسون وقد رصت قفف الخبز والدقيق وأقفاص الطيور، مضت ساعة حتى وصل إلى مطاي ولم يكن يدري الكاهن أنه جلس وفوق رأسه على الرف قفة بها دقيق كست ملابسه السوداء لونا أبيضا ناصعاً، نزل ولملم عباءته ونفخ في عمته (الكلوسه لتمييزها عن العمة المستديرة) وهى كلمة محرفة من لفظ "قلنسوة" وركب تكسياً بالنفر إلى المنيا لحق بالزملاء الكهنة وهم يستعدون لسماع التأمل أو الإرشاد يلقيه أحد الأباء الرهبان وقد دعاه المطران، وتلك من سمات الرهبنة الكاثوليكية العمق في الحياة الروحية، وموهبة الوعظ والإرشاد؛ إن الرهبنة في أصالتها هي الكنز الروحي للكنيسة، إنها المنجم الذهبي للحياة المسيحية، إنها الاستمرار الملموس لسر الفداء.

بعد القداس وبعد الغذاء، تتحول المطرانية إلى خلية نحل فهذا الكاهن يأخذ حسنات القداس من الأب الوكيل وهي تسعة جنيهات شهرياً، وذاك يختلي بالمطران لأمر هام، وآخر يحاور زميله حول موضوع من موضوعات الرعية، هذا اللقاء الشهري هام جداً ليس خلوة روحية وإنما هو اجتماع الأخوة.

تقدم الكاهن الشاب ليحصل على تسعة جنيهات هي حسنات القداس لشـهر بطوله (كانت حسنة القداس ثلاثين قرشا لا غير) حياه الأب الوكيل بابتســـامة عريضة ورحب به، وسأله هل بردنوها رعية رائعة فأجاب: طبعا، اشـكر الله وخدمة الفلاحين أمر جميل ورسالة مقدسة، قدم له الأب الوكيل إيصالا ليوقــع عليه، الإيصال بتسعة جنيهات، وقع الكاهن ولكن الوكيل سلمه سبعة جنيــهات فدهش الكاهن وسأله: سبعه فقط!!

قال الأب الوكيل: أثنين جنيه خصم لمساعدة فراشين المطرانية، صمــت الكاهن لحظة، ثم تجاسر وقال (وقد عرف فيما بعد أنه يثير الأســئلة ويميــل للتمرد) أنا هادفع لفراشين المطرانية، أجاب الوكيل برقة: أصلهم بيتعبوا يــوم الرياضة ودا تقليد من زمان. قال الكاهن: ولكن يا سيدي أنا أســاعد عــائلتي والرعية ليست رعية غنية. قال الأب الوكيل: أنت كاهن منتدب من القــاهرة يعني أنت ضيف مؤقت ولا داعي لإثارة الموضوع. قال الكاهن: ولكن هــذا المبلغ يؤثر في ميزانيتي. قال الأب الوكيل: أنه فعل محبة. قال الكاهن: نعــم، نعم، محبة بالإكراه، انه ربع المرتب تقريبا. قال الأب الوكيل لا عليك، عــود نفسك على الحياة بما تملك. قال الكاهن سمعا وطاعة، البركــة فــي الرعيــة ستعوض ذلك، تفرج بفرح أو خطوبة!!

****

انصرف الكاهن مهموما، لم يفهم الأمر، ثار في عقله سؤال سوف يظــل يؤرقه مدى الحياة: الكاهن والمال؟ الكاهن والعدل! الكاهن والمساواة.

مضى عائدا إلى رعيته وقد حزم أمره ألا يكون المال عقبة في حياته، ألا يسعى إلى الثراء أن يكون حريصا دوما ألا يكون كاهنا مترفــا... وتمضــي الأيام.



يوم السبت من كل أسبوع، يوم له دور خاص في الرسالة الرعوية بالقرية، أنه اليوم المكرس لزيارة العائلات وكأنه أعداد لها لحضور قداس الأحد، وهي تنتظر هذا اللقاء الأسبوعي مع الراعي بفرحة غامرة وبهجة روحية عميقة، ولعل المسيح أعطى المثل في هذه اللقاءات العائلية، إذ كان يتردد بين الحين والحين على بعض العائلات مثل عائلة لعازر وأختيه والعائلة التي بارك فيها عرس قانا الجليل وعائلة قائد المئة الذي ألتمس نعمة الشفاء لمريضه فزاره يسوع وأقامه من الموت بعد لحظات انطلاق الروح.

وزيارة الراعي هي سير على خطى المسيح، اهتمام باليتامى (لعازر وأختيه) مشاركة الفرح، صنع المعجزات، والراعي في زيارته للعائلة إنما يجدد إيمانها وينهض بآمالها ويواسي الحزانى، ويلقي بذور المحبة وكلمات الرجاء.

يأتي الكاهن بملابسه الرسمية، عباءته السوداء الفضفاضة (الفراجية) ولست أدري من أين أتت هذه الكلمة فقد بحثت في القاموس عن لفظ (فرج- افرج) فلم أعثر لها عن معنى لعلها كلمة "من أصل قبطي!؟" ويضع على رأسه القلنسوة التي حرفت إلى "الكلوسة" تستقبله العائلات بعبارة لا زال صداها يرن في أعماقه البعيدة زارنا المسيح؟! يا لعمق التعبير الشعبي ويا للعمق الروحي واللاهوتي، وكأن الوجدان الشعبي أدرك سمو سر الكهنوت وقداسة خدمة الإنجيل، تعد كل أسرة القلل ممتلئة بالماء، وأحياناً يعد معها طبق كبير وطشت وأواني أخرى ممتلئة بالماء، يصلي عليها الكاهن صلاة حفظها لنا التقليد

القبطي الشعبي الرائع ومنها هذه العبارة: الذي بارك مياه نهر الأردن يبـــارك هذه المياه ويبارك كل من يستخدمها ثم يرش البيت والحاضرين بالماء، والرش بالماء طقس عبادة منذ أيام الفراعنة، فالماء هو مصدر الحياة، وكأن الكـــاهن يرش الحياة ويجددها بالماء بعد الصلاة عليها ولعل الذين زاروا معبد الكرنـك، شاهدوا البحيرة المقدسة التي استخدمت في التطهير فيمـــا يشــبه الاســتعداد للصلاة، رمزاً لضرورة تنقية القلب والجسد قبل الدخول في أســـرار الصـــلاة والعبادة ومن الأمور التي تستحق التأمل أن الماء عنصر من عناصر جميـــع الطقوس الدينية بلا استثناء، له أهمية في أديان آســـيا كالهندوســية والســيخ والبوذية الشنتوية اليابانية، كما أنه معروف علمياً أن الماء يغطي مساحة ثلاثـة أرباع الكرة الأرضية وأن الحروب القادمة ستكون حروباً من أجل الحصـــول على المياه... ولله الحكمة.

جلس الكاهن الشاب على كنبة من طراز خاص يعرفـــه أهــل الصعيـد وبعض من أهل الدلتا، كنبة محاطة بأسوار خشبية من جهات ثلاث فرش عليها حصير مفتول له ألوان متعددة فاقعة.

كانت الزيارة لبيت الخواجا يوسف، ولفظ "خواجا" أطلق على الأقباط لـــم يكن موضع سخرية بل كان إجلالاً وإكباراً ولم يكن في أغلب الظن تمييزاً لهم عن أخوتهم المسلمين بل كان إشارة إلى من يعرف القراءة والكتابة ولا يطلـــق لفظ خواجا على قبطي لا يقرأ ولا يكتب.

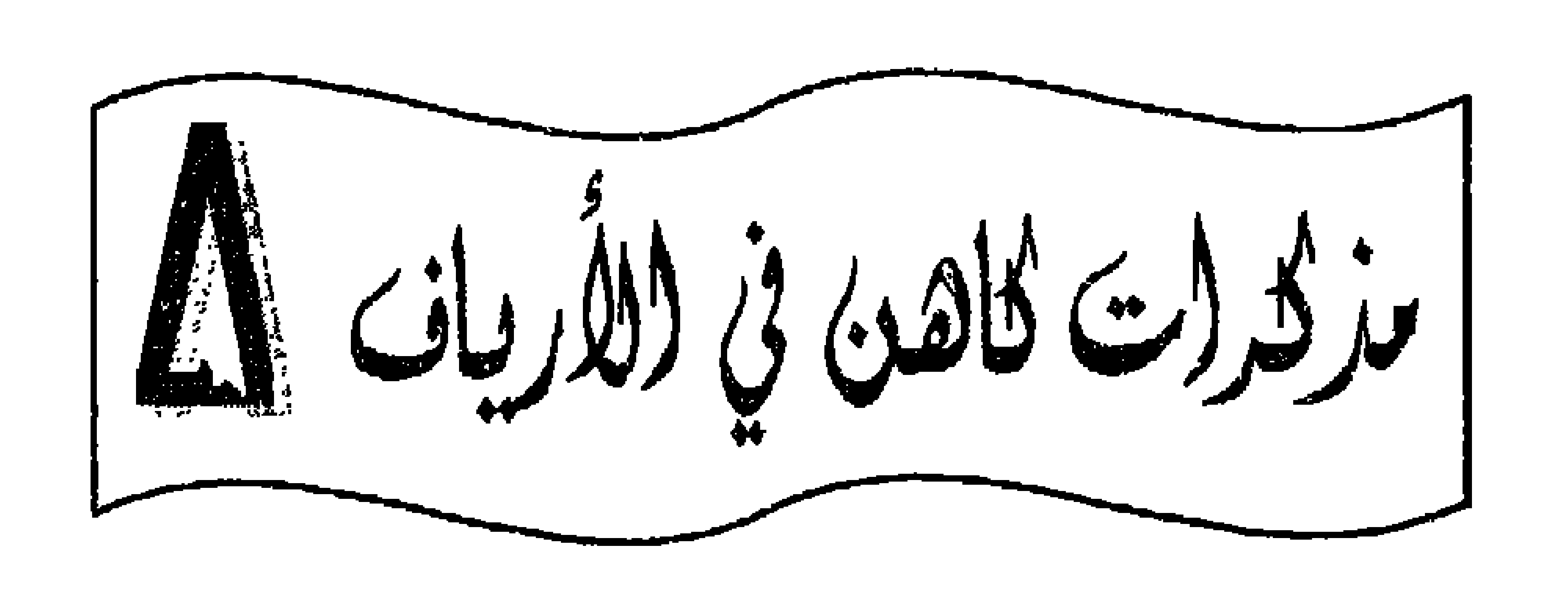
جلس أهل البيت على الحصير التي غطت أرضية صحن الدار، رؤوسهم عند أقدام الجالسين على الكنبة وهم الكاهن ورب البيت وأبنه الأكبر مينا وأمـــا ربة البيت زهيه فقد راحت تعد الشاي وما أعظم تضحيات المرأة في الريـــف أنها العطاء والتفاني بلا حدود، وجلـــس الابـــن الثـــاني جرجـــس والابنتـــان الصغيرتان سوسن ومرثا وهما في الخامسة والسابعة من العمر، واعدت القلـل الممتلئة بالماء ودار حديث ذو شجن بين الكاهن الشاب وبيـــن هـــذه الأســـرة البسيطة وقد أصطف على باب الدار مجموعة أخرى من الفلاحين والفلاحـــات

لسماع الكاهن الشاب وقد قيل عنه أنه "متعلم جدا" يتكلم في كل الأمور بلباقة أبهرت أهل القرية سأله أحد التلميذين عن أحوال القاهرة وهل صحيح أن التلفزيون سيدخل بيوتها قريبا وهل هو خطر على الأخلاق كما يقولون، سأله عن عبد الناصر، وعن معنى القومية العربية وعن الحرب القادمة مع إسرائيل، وأنبرى الكاهن الشاب وشعر أنه سقراط وارسطو وأفلاطون زمانه، بل قل امتلأ بحماس بولس الرسول وأثناسيوس، وأعجبه إلى حد الغرور أن الجميع منصت له في انبهار وخاض بحر السياسة والاقتصاد، بل وتطرق إلى الفنون وكان يحب أم كلثوم وعبد الوهاب حبا عميقاً، وأكد الجميع بلا استثناء على ثقافة واسعة لهذا الكاهن الشاب القادم من بحري...

وفجأة صاحت مرثا ذات السنوات السبع بصوت "مسرسع" وبتلقائية بريئة وقد شعرت أنها لم تفهم شيئاً من كل الأمور التي تحدث فيها الكاهن قالت: يا أبونا... إيه معنى الكلام دا... كلمنا شوية عن يسوع!!

وجم الكاهن وغرق في عرقه، وصمت الجمع، تلعثم لسانه، ثم استعاد سيطرته على ذاته، بعد أن زلزلت كلمة الفتاة الصغيرة أعماقه وأصابت صميم ضميره وفى لحظة صمته وذهوله وضحت أمامه رؤية جديدة، أن الناس لا تنتظر من الكاهن أن يكون ضليعاً في السياسة والاقتصاد أو عالماً في الآداب والفنون أو خبيراً في القومية العربية، أن البسطاء من المؤمنين بل وحتى من المثقفين يريدون أن يروا يسوع في الكاهن من خلال حياته وأخلاقه وكلماته، أتجه الكاهن الشاب بالحوار اتجاهاً روحياً وراح يشرح إنجيل الأحد (غداً) وكان على ما يذكر إنجيل ذكا العشار...

وعند المساء، وقبل أن يضع رأسه على الوسادة جلس وحيداً والنور من حوله خافت ضعيف، وكيانه كله يردد: كلمنا شويه عن يسوع، ولم ينس حتى اليوم هذه العبارة.



لم يخطر على بال الكاهن الشاب أن تحدث هذه البلبلة في القرية الآمنة المطمئنة، ولم يكن يدري أن هؤلاء الفلاحين البسطاء معرضون للتمزق الفكري أمام تيارات المذاهب والبدع ولولا طاقة الإيمان العميق التي تسري في أعماقهم، ولولا حبهم القوي لكنيستهم لذهبت بهم رياح المذاهب الوافدة كل مذهب.

كان اليوم سبتاً، من شهر نوفمبر، أجمل شهور السنة في الريف، فقد اكتست الحقول بثياب خضر وبدت حدائق مفتوحة تفتنه من يتأمل نضارة الأشجار وقد نثرت رائحة الجوافة وهى رائحة عطرة نفاذة، ورؤوس النخيل تتمايل في كبرياء وخيلاء وقد توجتها شمس الغروب بتيجان مذهبة وهاجة، وأشجار الكافور امتدت أعناقها إلى عنان السماء، وشجر الدوم يلامس السحاب والدوم شجر لا يأكل منه من يزرعه لأنه لا يأتي إلا بعد مائة عام من زراعته أنه يعلم الإنسان أن يزرع لمن يأتي بعده كما زرع له من سبقه، وفي شهر نوفمبر تتحول الأرض إلى بساط أخضر من نبات البرسيم الطعام الشهي لجميع الحيوانات (وقد سمعت أخيراً أن هناك مشروب عصير البرسيم) القرية المصرية هي وحي الأمن والسكينة، وهي التي ولدت أعظم حضارة في العصور الغابرة، وقد تثقف الفلاح بخبرة الحياة وحكمة التاريخ فالثقافة ليست شهادة جامعية وإنما هي خبرة الزمن والسابقين والتأمل في مسيرة البشر .

والفلاحة أو الزراعة هي المهنة التي أمر الله آدم أن يمتهنها، وقد قامت كل الحضارات القديمة على أساس "الزراعة" وهى التي أوحت للإنسان نظام المجتمع والحكم وتنظيم مياه الري ووضع القوانين التي ترسم العلاقات بين أفراد المجتمع، ولك أن تنظر إلى شكل الكرة الأرضية ونحن في الألف الثالث

بعد الميلاد فسوف ترى أن الدول القوية والكبرى هي دول زراعية قبل كل شيء، وويل لأمة حرمت من الزراعة أو احتقرتها أنها أمة حكم عليها بالبداوة والجاهلية والتخلف وحكم على طباع اناسها بالقسوة والعنف والميل إلى النهب، فالزراعة مهنة أبينا آدم...

قبل أن تتوترى الشمس في حياء خلف ظلال الأشجار الكثيفة وقبل أن تتسرب الظلمة إلى دروب القرية، وتهمد حركة الحياة في حواريها الملتوية، كان "قس" من أولئك القسوس الرحل، يدعون أن ليس لهم مذهب معين، وإنما هم خدم للمسيح، يتأبطون الكتاب المقدس، يضعون إشارة الصليب على صدورهم، ينادون بالخلاص من الخطيئة، يقولون أنهم مبشرون، يتقنون إلقاء العظة في شبه حركات هستيرية، يتلون الآيات المقدسة، يرفعون أيديهم صارخين هللويا، والفلاحون البسطاء يبهرون بما يسمعون وأغلب الظن أنهم لا يفهمون ما يسمعون وإنما هم يعجبون بفن الإلقاء وسرد الآيات ولا تخرج عظاتهم عن التهديد والوعيد من جراء كثرة الخطايا فالرب يسوع غاضب، والعقاب نازل، وويل لمن يصنع الإثم والفلاحون ليسوا في حاجة إلى مزيد من التخويف والإرهاب فهم يعيشون في خوف أزلي، خوف من الفقر والضنك والجوع، وخوف من سطوة الأغنياء وأصحاب النفوذ، والخوف من غضب السماء، الفلاحون في حاجة إلى محو أميتهم ولا لمحو إنسانيتهم وكرامتهم، وهم في حاجة إلى من يأخذ بيدهم في طريق الحضارة والرقى ولا لمن يأخذ بيدهم إلى طريق البكاء والندم على خطايا لا يرتكبون منها شيئاً، ولكن ما العمل، وإلقاء عظة عن الخطيئة والنار وعذاب الآخرة وباطل أباطيل العالم أمور تكاد تصبح بضاعة رائجة، تغيب العقول وتمسح طاقة التفكير وتقتل الرغبة في التقدم، وأغلب ظني أن أعظم منحة للإنسان، لأي إنسان، أن تعلمه كيف يفكر، كيف يحلل الأمور، كيف يتخذ القرار، كيف يحتفظ بأستقلاليه عقله وقلبه... ما علينا...

أشيع في أنحاء القرية أن القس الوافد من بني مزار المدينة القريبة التي تضم أكثر من سبعة مذاهب مسيحية سيلقي عظة مساء هذا السبت الذي لا

ينسى، شاهد القرويون القس ومعه شابان في العشرين من العمر، ومعهم حماران، طافوا بالقرية منادين أن التجمع سيكون في حي "الخوخة" وهو أحد الأحياء المكتظة بالسكان المسيحيين في بردنوها.

أختار القس "هضبة وسط خرابة" تسع عشرات من الجالسين وكأنه سيلقي "عظة جبل" وليغفر لي المسيح هذا التشبيه، كان يأمل أن يفتح لمذهبه مجالا في هذه القرية العريقة، كان يرتدي "بنطلونا" أسود اللون، وقميصا أبيض ناصع البياض يعلق عليه إشارة الصليب وقد ضم تحت إبطه الكتاب المقدس بعهديه في حافظة من جلد أسود، ألتف الفلاحون حول الهضبة لينصتوا للواعظ الذي لم يبلغ الثلاثين من عمره إن لم تتعثر الذاكرة.

وقف الواعظ على أعلى الهضبة وهي ارتفاع تكون من جراء تراكم الأتربة والطوب وإلقاء الماء، وقد اخترقت الهضبة نباتات صغيرة، وقف الشابان بجواره كل يمسك بلجام حماره.

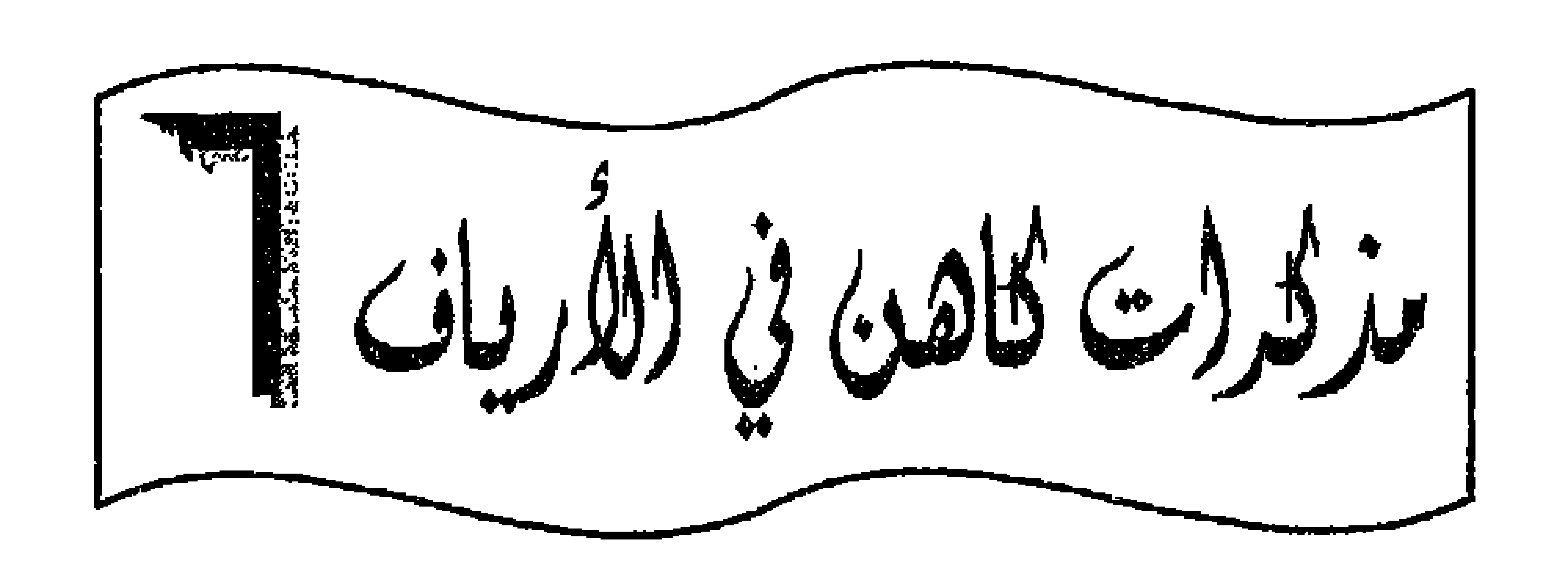
أضيئت الساحة بعدة "كلوبات غاز" وهي فوانيس ضخمة فلم تدخل الكهرباء القرية إلا بعد سنوات طويلة من هذا الحدث، بدا القس الترنيم والإنشاد وهو يترنح في نشوة وفعل مثله الشابان وفى لحظة تحولت الساحة إلى ما يشبه الفرح الشعبي، اشتد حماس المنشدين: شكرا لله الذي يقودنا بموكب النصرة كل حين، كفقراء لا شئ لنا ونحن نغني نغني كثيرين (وهذه آية كتابية) يرفع القس بين الحين والحين يمينه ويمد ذراعه إلى السماء، ينفعل مثله الشابان ويقلدهما الجمع الجالس القرفصاء، يصفق تارة صارخا هللويا فيتبعه الناس ويصفقون وخرجت زغرودة فرحة، وغرق الحاضرون في نشوة أشبه بالغيبوبة.

وفجأة أشار القس بيده وقد تجهم وجهه وقال: الصمت، لنصمت قليلا، صمت الجميع ولم يكن يسمع إلا صوت احتراق الغاز في "الكلوبات" ثم أشار القس إلى أحد الشابين ليتقدم خطوتين نحو أعلى الهضبة، وتقدم الشاب، ثم

أمره القس: أشعل سيجارة، فأخرج الشاب ما كان قد أعده من قبل علبة سجاير من صنف يستخدمه الفلاحون وأشعل الشاب السيجارة والجمع في ذهول من تضاد المشهدين، مشهد النشوة الروحية ومشهد إشعال السيجارة وأمر القس الشاب أن يقدم السيجارة وأن يقربها من فم الحمار، ففعل الشاب ولكن الحمار أشاح بوجهه بعيداً وقد نفر من رائحة الدخان، كرر الشاب المحاولة عدة مرات، والجمع في صمت واستغراب وأصر الحمار على الامتناع عن التدخين وهنا صاح القس في صوت عال وفي غضب كأنه غضب مقدس: يا أخوتي الأحباء، الحمار يرفض التدخين، والبشر يدخنون الحمار يرفض الخطيئة والبشر يتلذذون بها، وبالطبع كان في عبارة القس غمز ولمز وإسقاط لأنه عرف أن بعض الكهنة من المدخنين، وكرر القس صرخته يا للعار يرتكب الإنسان إثما يعف عنه الحمار..

وهنا قامت الدنيا ولم تقعد وتحولت الساحة إلى معركة قذفت الكلوبات بالحجارة وساد ظلام دامس لولا بصيص أنوار آتية من الأكواخ المجاورة، وتصايح القوم وأختلط الحابل بالنابل كما يقال عن الحروب القبلية، وأمسكوا بقميص القس، وضرب الشابان ضرباً مبرحاً وحدث هرج ومرج، ولولا تدخل بعض العقلاء الذين جذبوا القس والشابين والحمارين وأحاطوا بهم، لحدثت كارثة في القرى. ويذكر صاحبنا أن القس وصحبه، تسللوا بعد ساعات في عمق الظلام والليل، تسللوا إلى خارج القرية ومضوا في طريقهم يلفهم الصمت والخوف والتساؤل؟

لازال صاحبنا الكاهن الشاب يحتفظ في رؤاه التي عبرت بصورة حزينة لهذه الليلة الكئيبة، ويحمد الله ويشكر نعمته أن أموراً كثيرة قد تبدلت خلال ما يقرب من نصف قرن وأن أمور التبشير والدعوة والنهضة الروحية، تنطلق من المحبة، وتعلم صاحبنا أن اللفظ سعد نعم، نعم صدق الوحي الإلهي: لا تدينوا لئلا تدانوا.



كان ناظر مدرسة الكاثوليك ببردنوها وهي مدرسة ابتدائية اقــرب إلــى الكتّاب منها إلى المدرسة ولا تقبل إلا أبناء الكاثوليك بينما المدرسة الابتدائيــة الأخرى تقبل جميع أبناء القرية، كان الناظر الكاثوليكي رجلاً من طراز فريد، أقرب إلى المثقفين منه إلى العامة، يترفع في أحاديثه، ويشمخ حيــن يتكلـم، يشعرك بأنه جدير بان يكون ناظراً لمدرسة ثانوية أو أستاذا بالجامعة مع أنه لم يكن يحمل من الشهادات إلا "شهادة الكفاءة" لكن إدمانه للقراءة خلق منه مثقفـاً واسع الأفق غزير العلم، يلتهم أي كتاب يقع في يديه في أيام، لذا كانت الثقافـة وحب القراءة جسراً وطد علاقته بالكاهن الشاب، كلاهما عاشق للأدب العربـي وبخاصـة الشعر الجاهلي، يرددان معاً بيتاً لامرئ القيس:

الا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما إلا الاصباح منك بأمثل

ويعشقان الأدب الفرنسي وبخاصـة كتاب الفيلسوف ديكارت: مقــال فــي المنهج:

Discours sur la methode وقد ترجم إلى العربية بلغة راقية، وكلاهما ألم باللغة الفرنسية إلماماً ساعدهما على فهم معانيها وإن لم يسعفهما كثــيراً فــي التحدث بها إلا حين يستعرضان علمهما أمام الفلاحين ببعض عبارات قصــيرة مثل إلى الغد "a olemain" أو لا تشغل بالك "فيبهر الفلاحون أمام هؤلاء العلماء ويتعمق احترامهم للناظر وللكاهن، فالعلم زينه وتاج على رؤوس أهل العلم.

لم يكن الناظر ذا قامة شامخة فهو أميل إلى القصر منه إلى الطول نحيفاً، ضعيفاً، أو قل هزيلاً مطحوناً، فهو دوماً حزين مهموم فقد أبنــه الرابــع فــي حرب ١٩٥٦ وقد أنجب خمسة أولاد وبنتين وقد ترك رحيل أبنه الشهيد سمات الحزن والألم الدفين في أعماقه، يتسرب الأنين من عينيه بين الحين والحيــن كما يتخلل شهقاته يبدو كهلاً في السبعين وهو لم يتجاوز الخمسين من العمــر، يعشق لعب الطاولة كما يعشق "عرق البلح" خمر الفقراء، ربطت بين الكــاهن الشاب والناظر عادة ظلت تلازمهما سنوات وكأنها فرض مقدس لا يتخلفـــان عن تأديته كل يوم، يذهبان عند الغروب في نزهة إلى الحقول المنبسطة كأنــها ابتسامة الطبيعة وفرحة الحياة، يطوفان بالمقابر المتناثرة، يصليان "أبانا الــذي" وكم حكى الناظر للكاهن عن الراحلين وجــهادهم واغلــب الظــن أن نزهــة الغروب بين المقابر والحقول قد عمقت في قلب الكاهن الشاب إحساساً بالنســك والتجرد ولازال حتى اليوم لا يهمه أن يمتلك شيئاً أو أن يفقد شيئاً وقد أحتفــظ على مكتبه بجمجمة أهداها له الناظر في إحدى النزهات وهو يقسم لــــه أنــها جمجمة كاهن رحل منذ ثلاثين سنة، ولا عجب في ذلك فالجمـــاجم متنــاثرة، والعظام ملقاة، والقبور مفتوحة، وظلت الجمجمة على مكتــب الكــاهن حتــى رحيله عن بردنوها وقد تركها للناظر بعد أن كتب على جبهتها بخط يده: تذكر يا إنسان أنك ستصبح يوماً جمجمة.

****

ذات يوم، عاد الكاهن من نزهة الغروب، صعد إلى حجرته متعباً جســدياً لكنه ممتلئ حيوية روحية، ترك الناظر وقد جلس على كرســيه أمــام بوابــة الكنيسة والتف حوله بعض من الفلاحين وقد تقرفصوا وبعضهم أراح جســـده على حصيرة لا هو بيقظ ولا هو بنائم يشربون الشاي يعده الفلاحون، يدخنــون "الجوزة" فالشيشة من شؤون الأغنياء.. أما المعسل الأسود فهو كيف البؤســاء،

سمع الكاهن بعد قليل صخبا وضجة، أنصت إلى صدى الأصوات أدرك أن ناظر المدرسة الأخرى قد جاء ليجلس مع الجالسين، كان أرثوذكسيا شديد التمسك بكنيسته، يدخل في حوار لاهوتي مع الناظر الكاثوليكي، يستمر الجدل ساعات، حينا يشتد الحوار ويصخب وحينا يهدأ ويلين، والفلاحون البسطاء، اليقظون وشبه النائمين سعداء بهذا الجدل الذي لا يفهمونه كله أو لا يعقلون منه شيئا، كانت المناقشة بين الناظرين حول شخصية المسيح أحتد الأرثوذكسي وهو يقول: للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وإرادة واحدة، أنه الله الكلمة المتجسد فمن أين يا كاثوليك جئتم بفكرة الطبيعيتين والمشيئتين، وراح كل منهما يسوق الحجج، ويسرد الآيات، وشذرات من أقوال الأباء لعلها مبتورة أو منقولة من كتب قديمة، والفلاحون لا تنقصهم خفة الدم ، فلا مانع من قفشة هنا، وقفشة هناك، فيسأل فلاح وهو يشرب الشاي: فهمونا في الأول يعني إيه مشيئة ويسأل فلاح آخر يلف سيجارة: أصلا يعني إيه الكلمة الذاتية دا كلام كبير اشرحوها لينا شويه، ولم يكن الحوار يمضي في طريق مسدود بل غالبا ما ينتهي إلى تأجيل المباراة إلى سهرة أخرى.

نزل الكاهن الشاب من حجرته أنضم إلى الجالسين، قدموا له كرسيا، فالناظران أن يجلس كل منهما على كرسي ، وبدا حديثه محاولا أن يقرب بين الفكرتين فقد تعلم من الاكليريكية أن الخلاف حول هذه العقيدة، خلاف لفظي لا يمت للإيمان بصلة، حاول أن يثبت صدق التعبير الأرثوذكسي وصدق التعبير الكاثوليكي ما دام التعبيران يهدفان إلى إيمان واحد بأن المسيح، كلمة الله، الله-الإنسان، أبدى الجميع قبولهم لرأي الكاهن مجاملة دون اقتناع واضح، إذ كيف يتنازل أحد الناظرين عن "عقليته" وعن قضية ظلت خمسة عشر قرنا من الزمن موضع معارك طاحنه وخلافات مذهبية، أرتاح الجميع لموقف الكاهن الذي لم يحسم الأمر، وأغلب الظن أن أمور الفكر الديني والعقائد لا تحسم إلا بنعمة وموهبة الروح، لا بالجدل وبالمنطق، ويبدو أن صاحبنا الكاهن الشاب

غلب عليه طوال حياته ميل شديد إلى عدم الدخول في «صراعـــات»، ورغبـــة عميقة في تجنب عنف الحوار وقسوة الكلمات.

****

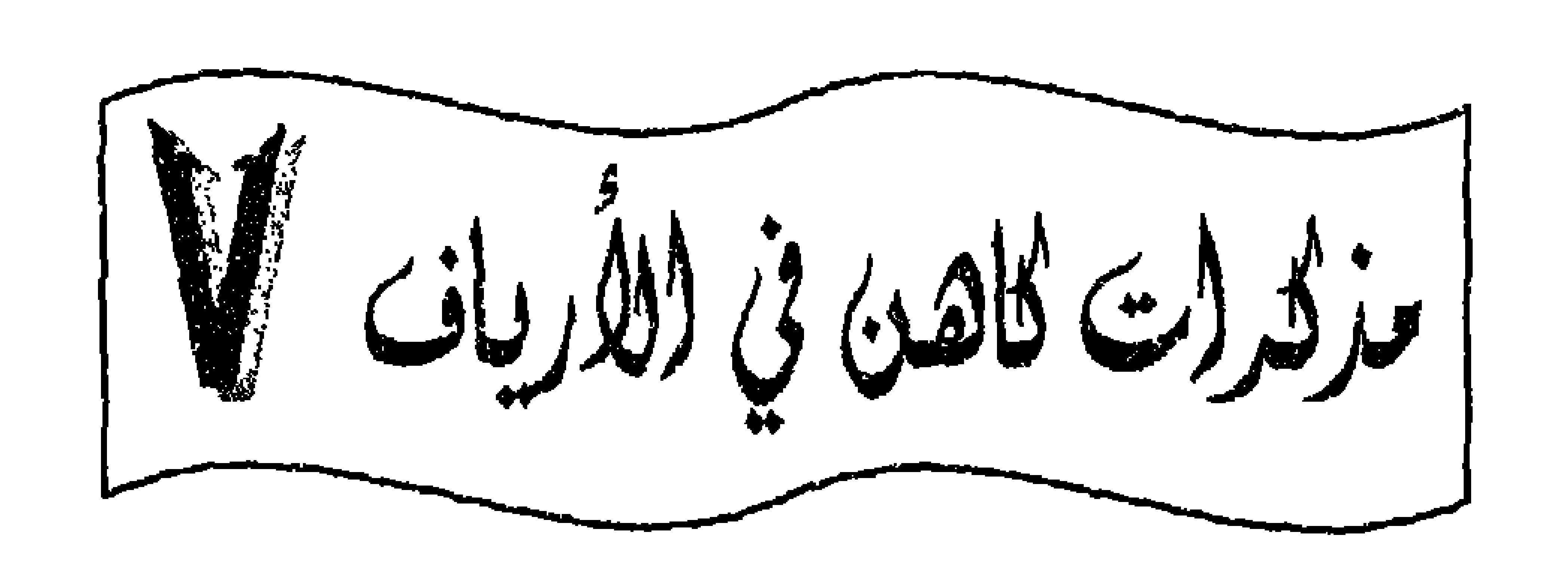
وتمضي الأيام، ويرحل العمر إلى الخريف، يعبر ثلاثين عامـــاً يشـــتعل الرأس شيباً، ويصبح الكاهن عضوا في لجنة الحوار اللاهوتي بيـــن الكنيســـة القبطية الأرثوذكسية وبين الكنيسة الكاثوليكية ويشهد المعجزة في ديـــر وادي النطرون، لقد تمت الموافقة من الكنيستين على نص وقعه البابـــاوان: يوحنـــا بولس الثاني- والبابا شنوده الثالث يوم الجمعة ١٢ فبراير ١٩٨٨ بدير الأنبـــا بيشوي بوادي النطرون

النص يعلن وحدة الإيمان في عقيدة "شخص المســـيح" وأســـجل النـــص الرسمي كما كتب، يقول النص: (عن مجلة الصلاح مارس ١٩٨٨) "اجتمعـــت اللجنة المشتركة للحوار اللاهوتي بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيســـة القبطيـــة الأرثوذكسية يوم الجمعة ١٢ فبراير ١٩٨٨ بدير الأنبا بيشوي بوادي النطرون وقد صدر في ختام هذا الاجتماع الذي أفتتحه قداسة البابا شنودة الثالث ببيـــان جاء فيه نحن نشكر الله أننا يمكننا الآن أن نوقع على صيغة مشتركة تعبر عـــن اتفاقنا الرسمي بخصوص طبيعة السيد المسيح أما باقي نقـــاط الخـــلاف بيـــن الكنيستين فستقوم اللجنة العامة للحوار المشترك بفحصها على التوالي بمشـــيئة الرب أما نص الاتفاق فهو: "نؤمن أن ربنا ومخلصنا يسوع المســـيح الكلمـــة المتجسد هو كامل في لاهوته وكامل في ناسوته، وجعل ناسوته واحـــداً مـــع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا تشويش ولاهوته لم ينفصل عـــن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين وفي نفس الوقت نحرم كلاً مـــن تعـــاليم نسطور واوطاخي" توقيعات اللجنتين

وعندما شهد التوقيع، دار في ذهنه ما حدث منذ ثلاثين سنة بين الناظرين، وتساءل الكاهن في ضميره: ترى هل علمت بردنوها بهذا الاتفاق؟

ترى هل أدركت روح الناظر الأرثوذكسي، وروح الناظر الكاثوليكي، وقد رحلا إلى موكب المؤمنين الخالدين، هل أدركا ما حدث.

ترى ألا تزال المناقشات حادة مشتعلة، أم أن الروح القدس يقودنا إلى المحبة فلحظة محبة وموقف تواضع، يمكن أن يغلبا خمسة عشر قرناً من الخلاف والعناد.



ما أجمل"العرس" في الريف، قطرات من الفرح التلقائي والعميق يسكبها على قلوب الفلاحين في خضم حياة أقرب إلى الشقاء والبؤس منها إلى النعيم والسعادة، تتحول القرية ليلة العرس إلى عائلة واحدة، في تضامنها وتعاونها، والفلاحون القادرون يذبحون عجلاً، وغير القادرون يذبحون جدياً أو خروفاً، أنهم يعدون العجل أو الجدي قبل العرس بشهور طويلة ليسمن ويملأ بطون المدعوين وهم في أغلب الأحيان كل سكان القرية من الرجال، أما النساء فقد يصبن شيئاً من بقايا العجل أو الجدي أو يطعمون البط والأوز والدجاج...

العرس في القرية "فولكلور شعبي" تمتد جذوره إلى آلاف السنين فالعادات الفرعونية باقية، يحاط العريس بالاحجبة والرقيات وتبخر العروس طرداً لشياطين الحسد وضربات عين الحقود، تتزين العروس بالملابس البراقة الزاهية، تلبس الأساور من الذهب والخلخال من الفضة وحتى اليوم لم أجد شرحاً وافياً لوضع الخلخال أو "الحجل" حول أسفل ساقي الفتاة وعند القدمين، وأغلب الظن أنها عادة قدمت مع الفاتحين من القبائل البدوية العربية، هل يرمز بدخولها بقدميها إلى "أسر الزواج" هل يلمح إلى عادات الخطف والغزو، هل الخلخال برناته لون من ألوان الجمال الموسيقي وفيه جاذبية للرجل كما أشار إلى ذلك نجيب محفوظ في رواياته. لا نجد الخلخال في سيقان النساء عند الفراعنة.

ويأتي المزين أو الحلاق إلى منزل العريس يعده ليبدو في أجمل صورة ويلبس العريس وما يتناسب وثروته فالأغنياء يضعون جلباباً من الصوف حتى

ولو كان الوقت صيفاً والفقراء يلبسون جلابية جديدة من قماش البفته البيضاء أو اللينوه ولابد من الطاقية الجديدة وربما غزلتها العروس أو أمها ليضعها العريس في الليلة الموعودة، وربما اشتراها العريس والطواقي أشكال وأنواع وتكتمل زينة العريس بوضع "اللاسه" أو "الكوفية" أو "الشال" حول رقبته ويتدلى الطرفان على صدره وعلى ظهره فيبدو كنجم من نجوم السينما.

لا تكف الزغاريد في بيت العروس ولا تكف الأغاني هذا التراث الموروث منذ القدم ولا يظن قارئ أن الفلاحين جهله بأمور الجنس وبأمور الحب فليس أبسط من هذه الخبرات الإنسانية يتوارثها الفلاحون في أحاديثهم وتلميحاتهم ومشاهداتهم في الحقول تناسل الحيوانات ولا يفوت الفلاحات الحديث بينهن عن هذه الأمور فليس جميع الفلاحين من الأولياء والقديسين، فلهم عالمهم حيث تدور الهمسات حول العشاق والمحبين.

أما عادة ختان الأولاد فقد أخذت عن العهد القديم (سفر التثنية) ولم تعرف عند قدماء المصريين أما ختان الإناث فهي عادة وثنية مرزولة مقيته، منتشرة في القرى، إنها عار ينبغي أن يمحى تماماً، لم تعرفه حضارة الفراعنة وإنما جاء هذا العنف الفظ من شعوب آسيا، ترفضه المسيحية، وتأباه الأخلاق السامية.

كل شئ كان معداً لإقامة فرح نعيم وتريز، هو فلاح أصيل بلغ العشرين من عمره وهي ابنة عمه لم تتجاوز السادسة عشر من عمرها، أبواهما شقيقان، حقلهما واحد، أغنامهما واحدة، بيوتهما متلاصقة وقد سرت قصة حبهما في كل أنحاء القرية ويأتي في هذا المجال بيت شعر قديم يعبر عن حالهما: أحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

دعي الكاهن الشاب، ومعه فريق الشمامسة بملابسهم البراقة وعلى رؤوسهم تيجان ذهبية لامعة، صحيح أن التواني "جمع تونية" أو الثوب الأبيض الذي يرتديه الشماس لم تقربه الماء منذ شهور ولا يعرف "المكوى" وكم جاهد

الكاهن الشاب لكي يهتم كل شماس بملابسه دون جدوى، كان يعجب الكاهن الشاب بأناقة ملابس الشمامسة من أهل الغرب وعنايتهم الفائقة بنظافة هندامهم وتجميل المذبح وأدوات الطقس الغربي، كان يقول للشمامسة أنتم الملائكة المتشحة بالثوب الأبيض والوشاح الذهبي في وصف سفر الرؤيا، فهل يعقل أن يكون الملائكة الذين يحيطون بالعرش الإلهي ملابسهم غير نظيفة؟.

ذبح عجل، وظلت النسوة تعده للطعام يومين متتاليين وامتدت الموائد في الحارة، وحولها الفوانيس يشرف على الحفل والدا العريس والعروس، وأقبل المدعوون وغير المدعوين من فقراء القرى المجاورة إنها الفرصة النادرة التي يتاح لهم فيها تذوق طعم اللحم والفته والأرز، وتتجمع الكلاب والقطط لتلتقط رزقها.

قبل موعد العرس في التاسعة مساءً، أقبل العريس مهموماً إلى الكاهن الشاب، وأصر أن يحادثه لأمر جلل دهش الكاهن ولم يستطع أن يستنبط أسباب هذا الحزن الذي يكسو وجه العريس في ليلة عرسه، وزاده الأمر فضولاً لعله يكشف أسرار هؤلاء الفلاحين، جلس الكاهن والعريس وجها لوجه في حجرة الاستقبال ودار بينهما الحديث وأعتقد أن الذاكرة تحفظه بلا أدنى شك أو خلط.

قال الشاب: يا قدس أبونا أنا خايف عمي يعملها الليلة

الكاهن: يعمل إيه!! دا عمك ودي بنت عمك

- أصل عروسي هي البنت الصغرى وحكاية حبنا معروفة للجميع

- بس أبوها عاوز الكبيرة تتجوز قبل الصغيرة ويا قدس أبونا خليك واعي ممكن عمي يجيب البنت الكبيرة ويحطني أمام الأمر الواقع. أعمل معروف، ابعت لعمي علشان تكلمه، الحكاية دي ماشية عندنا في الفلاحين وياما عرسان وقعوا في المطب بس أنا بحب تريزا قوي ومش ممكن أتجوز أختها ولا غيرها.

ذهل الكاهن وسرح بخاطره ورأى تساقط كل النظريات الفلسفية عن المنطق وعن الحب، وبعد لحظات من الصمت قال الكاهن للعريس، سأتصل بعمك الآن وسأحادثه، اذهب أنت مطمئنا، وقف العريس، واخذ يد الكاهن ليقبلها مستعطفاً مستجيراً فربت على كتفيه وقال سأعمل كل جهدي لتكون الأمور على ما يرام، وخلال دقائق، أرسل الكاهن في طلب والد العروس وأحس بارتباك عقلي شديد وقد أفترض أنه صمم على تزويج الكبرى فماذا سيفعل ؟ هل يكون الإكليل باطلاً ؟ هل يمتنع عن مباركته؟ وما هي ردود فعل القرية وما قد ينتج عن ذلك من فضيحة بجلاجل، وحزم أمره على مواجهة الأمر وحسم الموضوع مهما كان الثمن قبل وقوع الحدث..

جاء والد تريزا، دق على بوابة الكنيسة، دعاه الكاهن إلى الصعود، حياه الكاهن بابتسامة عريضة وتحفز خفي

قال الوالد: خير يا قدس أبونا...

لا مش خير يا عم معوض.. دي مصيبة

– مصيبة ليه كفى الله الشر

–أنت عاوز تجوز البنت الكبيرة..

قاطعه معوض بقهقهة عالية، وبدت عليه لا مبالاة ثم قال في سخرية: وأيه المشكل.. البنت الكبيرة قبل الصغيرة ودي أخت دي والعريس أبن أخويا ودي حاجات عادية عندنا وحضرتك هتقول الكلمتين للكبيرة أو للصغيرة

حاول الكاهن أن يبدو هادئاً برغم أن بركاناً ثار في وجدانه، فهذا الأمر يتعارض مع القيم الأخلاقية والمسيحية التي درسها فكيف يلقاها هذا الفلاح بمثل هذه السخرية اللاذعة، تجهم وجه الكاهن، وأشار بيده إلى فوق وقال: لن يحدث هذا معي، لن أبارك إكليلاً باطلاً .

قال معوض: إيه كلام باطل دا يعني جواز من غير حب يبقى باطل، أنــا وأبويا وجدي أتجوزنا لا كان فيه حب ولا غرام، هو أبونا آدم عــرف حــواء وحبها قبل الجواز، قام من النوم لاقاها جنبه ، فشكر ربه ورضي بالمقسوم...

حاول الكاهن أن يحبس ابتسامة ، بل قهقهة ولكنه عجز ، وضحك حتــى استلقى، وقال لمعوض: أول مرة أسمع فيها هذا الشرح للكتاب المقدس عنـدك حق يا معوض هو آدم كان بينه وبين حواء قصة غرام، لكــن ماتنســاش دي هدية ربنا، وآدم كما ذكر الكتاب أعجب بحواء وقال: هذه لحــم مــن لحمــي وعظم من عظامي وهذا إعلان بالرضا ولم تكن حواء تخفي وجهها أو تحــل مكان شقيقتها...

قال معوض: أعمل معروف يا أبونا خليها تعدي دي البنت الكبيرة نفســها هتتكسر ويبقى عندها عقدة، وما تفرقش عند ابن أخويا يزعل شــوية وبعديــن يتعود عليها، الجواز تعود أكثر منه حب وغرام، وإلا في مصر عندكم غــــير كده

قال الكاهن: مستحيل دا يتم يا عم معوض العريس كـــان هنـــا وكلمنــي والحكاية مبقتش سر ولازم يتجوز اللي بيحبها

فتح معوض فاه مستغرباً ورفع حاجبيه وقال : العريس كان هنا ، يبقـــى عملتها بنت الايه، أمه، وراحت قالت له، خلاص يا قدس أبونا.. اللي تشــوفه حضرتك نصيب الكبيرة قاعد لها...

وهب واقفاً منكسراً، وقد قفزت من عينيه دمعه كبيرة وضرب كفاً بكــف وخرج صامتاً.

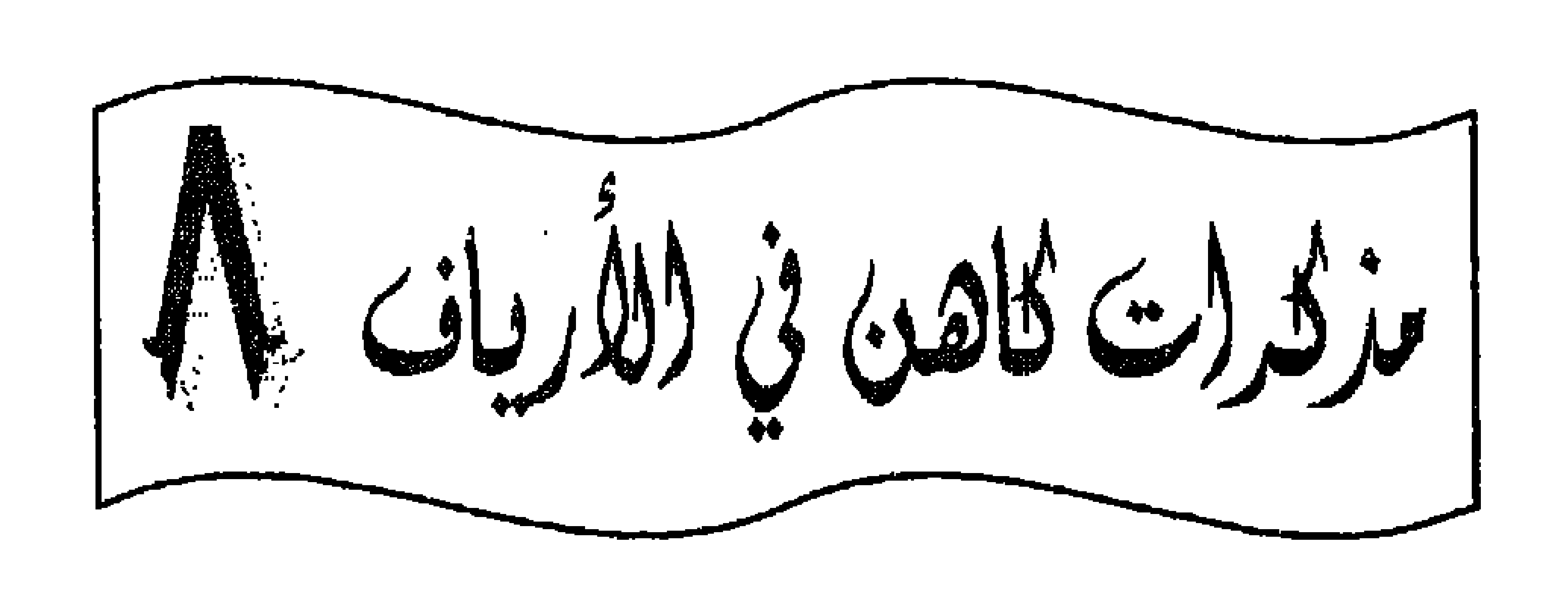
****

لم يبارك الكاهن العرس إلا بعد أن أرسل شماسه صموئيل ليتأكد مــن أن العروس هى المحبوبة، وأكد له الشماس أنه قد حدث التعديل بعد عودة معوض

إلى البيت ، وتزينت العروس الحقيقية ولكن شماسه ألقى عليه سؤلاً: يعني كان فيها أيه يا أبونا، دي البنت الكبيرة محطمة ، كان ممكن الموضوع يعدي..

نظر إليه الكاهن في غضب، وفي أسى، ولم يتذوق لحم العجل ولم ينـــم هذه الليلة، وكانت أصوات الزغاريد تأتيه من بعيد وهو يقظ في فراشه، يتقلـب في حزن، ويعزيه أنه أدى واجبه، وتمضي الأيام وتـــتزوج الكـــبرى، ولازال سؤال يتردد في ذهنه حتى اليوم

ترى هل تزوج آدم حواء عن حب؟



لماذا تكثر "الموالد" والأصرخة في أنحاء مصر، فلا تكاد مدينة أو قرية تخلو من نصب لقديس أو ولي أو سبيل ماء؟ أغلب الظن أن الشعب المصري قد تأثر في ذلك بأمرين: أولهما، الإرث الفرعوني، فقد كان لكل مدينة إلهها أو معبودها، وسيد الآلهة هو آمون ومقر عبادته ومركز رئيس الكهنة في المدينة المقدسة الخالدة طيبة أو الأقصر، وحين بسطت عقيدة الإيمان بالإله الواحد أنوارها اضطر قائدها وعبقريها إخناتون إلى مغادرة طيبة والإقامة في تل العمارنة (ملوي) وحاول نشر دعوته في أنحاء مصر تصدى له كهنة آمون وقاموا بثورتهم ضد هذا التعليم الذي يسد عليهم منافذ الرزق ويحرمهم من ثراء التجارة بالآلهة وبالدين، ويضعف نفوذهم بين طبقات الشعب. ومات إخناتون في الرابعة والعشرين من عمره ولعله مات مسموماً أو مقتولاً ولم تستطيع زوجته الجميلة نفرتيتي أن تحمل مشعل عقيدة التوحيد، فتوارت خلف الظلال، وطوى التاريخ صفحة كتبت أروع وأنبل أنشودة دينية، وهي أنشودة العبادة للإله الواحد لا إله إلا هو، وبسط كهنة آمون نفوذهم من جديد، وعادوا أكثر قوة وأقوى شكيمة ولكن الفكرة لم تمت ومتى كانت الأفكار تدفن مع أصحابها؟ إنها كأشعة النور تنفذ إلى العقول، وهكذا عرفت مصر عقيدة الإيمان بالإله الواحد التي تلقفها فلاسفة اليونان فيما بعد وصاغوها فلسفة رائعة ومنهجاً فكرياً لم يزل حتى اليوم موضع دراسة في كل جامعات العالم.

الأمر الثاني الذي صاغ وجدان الإنسان المصري هو اللجوء إلى الأولياء والقديسين طلباً للشفاعة وهروباً من الظلم. وحينما أشرق فجر المسيحية

وتسربت أشعة سرى التجسد والفداء إلى وادي النيل لتتحد بشمسه الساطعة. لم يكن الأمر صدفة فليس في الوجود أو في مسيرة التاريخ صدفة ولم يأت الحدث اعتباطاً، وإنما كل شيء يمضي بقانون وبقضاء، أضحت الإسكندرية منارة للعالم المسيحي لأن الشعب القبطي كان الشعب المهئ لحمل رسالة المسيحية والدفاع عنها وإرساء أسس اللاهوت وعلوم التفسير، لقد كانت مصر هي الأرض الخصبة التي شربت ماء الخلود منذ فجر الحضارة الإنسانية ونهضت بالمسيحية وارتوت بدماء الشهداء وتشبعت بروح التصوف والقداسة.

انتشرت المسيحية، وزخرت مصر بالعلماء والقديسين، وامتد نفوذ الفكر القبطي إلى مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وارتفعت منارات الكنائس في كل المدن والقرى وزرعت الأديرة في صحراء مصر من أسوان إلى الإسكندرية، وازدحمت بالرهبان والراهبات وعاشت مصر القبطية أزهى عصورها خلال القرون الثلاثة الأولى قبل أن يتمزق الشرق بالخلافات المذهبية وقبل أن تخترق الوحدة المسيحية سهام الكبرياء.

انتشرت أيضاً عادة إقامة ضرائح للشهداء والقديسين. والمزارات التي قيل أن المعجزات تحدث فيها... حينما طرق العرب أبواب مصر، في بداية القرن السابع الميلادي، وفتح الأقباط أبوابها للعرب وللمسلمين، لم يمض زمن طويل حتى انتشرت المزارات الإسلامية وإقامة ضرائح الأولياء. لقد هضمت مصر العظيمة الفكر المسيحي وأعطت للعالم كله لاهوتاً قبطياً وتراثاً مسيحياً خالداً. ثم هضمت مصر الفكر الإسلامي واحتفظت دوماً بمكانتها المعتدلة، وموقفها العاقل المتزن فلم تعرف مصر تطرفاً، ولم تعرف دموية الصراع بين المذاهب في عصرها القبطي أو في عصرها الإسلامي وحين اشتدت أزمة الكاهن آريوس (٣٢٥م) ولم يكن من أصل قبطي بل كان من أصل ليبي وقفت مصر القبطية مع بطريركها، وحين تمزق العالم المسيحي إبان مجمع خلقيدونيا (٤٥١م) توحدت مصر مع بطريركها، وحين قامت الفتنة الصغرى والفتنة الكبرى في التاريخ الإسلامي منذ القرن الهجري الأول لم تعرف مصر انقساماً

أو صراعا. ظلت مصر هي الواحة والوادي، وأرض السلام، وعقل الشرق، وقلب الإيمان، في مسيرة المسيحية كما في مسيرة الإسلام.

كل هذه المقدمة لكي أمهد للحديث عن مولد السيدة العذراء أم النور، لها دير بسمالوط قرب بردنوها، ولها ببيا نواحي بني سويف ولها الدير المحرق العظيم في نواحي منشية القوصية بل دعني أبالغ وأقول أن في كل بيت قبطي مكانا للعذراء مريم، بل في كل قلب قبطي إكرام خاص لأم النور، استعدت بردنوها برمتها، المسيحيون والمسلمون لزيارة دير العذراء بسمالوط، ليست زيارة دينية فحسب، ليس أوقات صلاة فحسب، بل هي نزهة الفقراء خلال أيام الصيف هي رحلة خليط بين مشاعر دينية ومشاعر فرح شعبي ومشاعر رجاء وأمنيات، لا أسرف إذا قلت أن العذراء أم النور شفيعة مصر القبطية هي التي صانت بنعمة ابنها الأقباط حتى اليوم، أما الزيارة للدير أو للموالد فلها حديث آخر.

يا أمنا العذراء. أيتها البتول الطاهرة كوني حصنا لكل شعب مصر.

مذكرات كاهن في الأرياف 4

كان اليوم هو يوم الاجتماع الشهري لكهنة الإيبارشية وقد أشرت إلى أهمية هذا اللقاء، والقانون الكنسي يلح على ضرورة الرياضة الروحية بين الحين والحين. كاهن فاضل، يرعى كنيسة في إحدى القرى المحيطة بمدينة المنيا، من الكهنة القدامى الذين تخطوا عتبة الخمسين والذين تلقوا علومهم على أيدي الآباء اليسوعيين حين كانت المدرسة الإكليركية ملحقة بمدرستهم في حي الفجالة.

ألم بالفرنسية إلماماً لا بأس به، عشق الطقوس الكنسية وأسرف في عشقه وقد ساعده في ذلك صوته الرخيم أميل إلى الجمال منه إلى الفتح.

أحبه الناس في القرية، وأهل القرية يحبون في الكاهن إتقانه للطقوس الدينية، ونقاء سيرته، وعطفه على الفقير والضعيف والأرامل.

ولقد عرف الكاهن ببساطة في الحياة، وبابتسامة لا تفارق طلعته، وتمسكه المتصل بملابس الكهنوت السوداء، الكلوسة والفراجية، جسده نحيف متوسط الطول. أنيق دوماً أبيض البشرة، له عينان خضراوان، وبياض البشرة وتنوع ألوان العيون هي أمور منتشرة في إقليم المنيا كما هي منتشرة في إقليم المنصورة، وبعض المؤرخين قد أشار إلى بقاء جيوش الغزاة من الفرنجة زمناً طويلاً أتاح للزيجات المختلطة، وبعض المؤرخين ذهب إلى أبعد من ذلك في تاريخ الأقاليم حيث يؤكد اختلاط الشعوب على زمن حضارة إخناتون وعاصمته (تل العمارنة) في ملوي قرب المنيا، وآخرون يشيرون إلى الجاليات

اليونانية التي استقرت بنوع خاص في أقليم المنيا ولازالت بقاياهم تمارس مِهَناً معينة، وتبقى حقيقة واضحة، إن احتفاظ جنس من الأجناس بنقاء الأصول وهم من الأوهام، فلا توجد بقعة من الأرض لم تمتزج فيها دماء الشعوب، ولم تتصاهر فيها الأجناس.

نعود إلى الكاهن الأنيق الذي كان يعلق ساعته المستديرة بسلسلة ذهبية ويضع الساعة في جيبه الصغير تحت إبطه، فتضفي على أناقته بعضاً من الثراء والترف. جذب الكاهن صاحبنا زميله الشاب من ذراعه وهمس في أذنه. أريد أن أحادثك في أمر هام، وخرج الاثنان متأبطين. سارا جنباً إلى جنب في حديقة المطرانية والحق يقال أن الحدائق نادرة في الكنائس الشرقية بوجه عام على عكس الكنائس الغربية وأديرتها ومؤسساتها فالفرنجة يحيطونها دوماً بالخضرة وأحواض الزهور، حتى في بلادنا الشرقية نجد دور العبادة الخاصة بالأوروبيين لا تخلو من مساحات لزرع الجمال والبهجة والأشجار، ترى ما سبب ضعف الإحساس بروعة الطبيعة عند أهل الشرق؟ لعله سبب اقتصادي أو اجتماعي أو لعله يسبب تأثرنا بالصحراء وهي لها جمالها وما توحيه من زهد وتجرد!!

قال الكاهن الأنيق لصاحبنا الكاهن الشاب: أنت تعرف إنني قضيت سنوات طويلة راعياً لكنيسة بردنوها ولها عندي مكانه خاصة، فقد تعلمت فيها ممارسة الطقوس وإتقان ألحانها وقد علمت أن القرية برمتها تستعد لزيارة مولد السيدة العذراء بسمالوط.

قال صاحبنا: نعم فلقد اقترب موعد صوم العذراء.

قال: ما رأيك يا زميلي في زيارة مولد جديد للعذراء أنشأته في قريتي الكبيرة، وقد امتدت شهرته إلى القرى المجاورة، وحصلت على ترخيص من

الجهات الرسمية بإقامته، لقد استطعت أن أحصل على تمثال رائـــع لعــذراء لورد، تحفه فنية من أحد الأديرة بالقاهرة وأقمت لها كهفاً جميلاً يشبه الكـــهف الذي ظهرت فيه العذراء أم النور في فرنسا.

دهش صاحبنا الكاهن الشاب، وسأل في استغراب ساذج: حضرتك أنشأت المولد؟.

– نعم وقد سمح لي المطران بذلك. والناس تتوافـــد مــن كــل صــوب للاحتفال بعيد العذارء، وقد أشيع أن معجزات قد حدثت في المولـــد، ولــك أن تتخيل حجم النذورات والتبرعات والذبائح وكميات البخور والشموع.

– قال صاحبنا في براءة الأطفال: أليس في الأمر رائحة السيمونية، نسبة إلى سيمون الساحر الذي أراد أن يشتري موهبة الروح القدس بالمال (أعمـــال الرسل).

– أجاب الكاهن الأنيق بحدة: ماذا تقول-- أية سيمونية؟ هذا المولد لا دخل فيه لأمور العقيدة أو للأسرار الكنيسة.

ولكن المولد لا ينشأ بتمثال– لابد أن يكون في المكان أثرا دينيـــا، قــبر شهيد، كنيسة قديمة، معجزة حقيقية، فالموالد جــزء مــن الــتراث الروحــي، ومدرسة للفكر الديني.

هذه فلسفة لا يعرفها الفلاحون البسطاء.

– ولكن علينا نحن القيادات الروحية أن نعلمهم، لا أن ندفعهم إلى أمــور أقرب إلى الكذب منها إلى الصدق.

– إذن تعال وعلمهم، فأنت واعظ قدير وأدعوك للاشتراك في قداس عيـد العذراء وإلقاء العظة ولك أن تصحب معك أهل بردنوها.

– قد يحدث ذلك في العام القادم إن أذن الرب. حاول صاحبنا أن يفلـــت من المأزق. وقد أدى عدم رضاه عن هذا المولد المصطنع وشكه في اســتغلال

البسطاء بدروشة دينية. هز الكاهن الأنيق رأسه وقال في نبرة غاضبة: إن المولد فرصة رائعة للنهضة الروحية، كنت أنتظر منك التشجيع.

ظل المولد قائماً سنوات طويلة، تحول إلى شبه موسم تجاري، اختلطت فيه الأمور بين طقوس دينية ومظهر روحي، وأساطير عن معجزات تحدث يتناقلها الناس بلا وعي أو إدراك، حتى قيض الله للإيبارشية مطراناً على عمق روحي، وعلى غيرة رسولية، وعلى ثقافة إنسانية شاملة، رسولاً يتدفق تقوى ونبلاً وهو علم من علماء الكنيسة، أصدر المطران أمره بإلغاء هذا المولد.

وتمضي الأيام..

ولازالت مصر المحروسة مزدحمة بالموالد..

١- مذكرات كاهن في الأرياف

جسد ضئيل ن نحيف، قصير لا يتعدى متراً ونصف متر يحمل رأساً كبير كأنه موقد ذكاء خارق، عينان سوداوان تلمعان تبرقان، وجه فرعوني الملامح يعلوه شعر اسود فاحم، حين يتكلم تتدفق العبارات في منطق سلس، هادئ، مراوغ، أنيق الملبس، لا تراه إلا مبتسماً يحب النكتة الحديثة، والسخرية المهذبة، عاشق للحياة، يستمتع بأطايبها، وبرغم نحافة جسده وضآلته إلا أنه عنيد.

ذلك هو الأستاذ "جرانت" زميل صاحبنا الكاهن سنوات طوالاً في الاكليريكية، لم يعرف كصاحبه معنى الرسوب في أي امتحان آثر أن يترك الدير ولم يبلغ العشرين من عمره بعد أن أنهى دراسة الثقافة (الثانوية حالياً) التحق بجامعة القاهرة – كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية، لم يخجل حين قال صراحة أنه يرغب في الخدمة الكهنوتية ولكنه يرغب أيضاً في الزواج وبناء أسرة، ولم تكن سيامة كهنة متزوجين تلاقى ترحيباً أو قبولاً في الكنيسة الكاثوليكية بالرغم من أن الزواج سر مقدس أنه الأصل في بناء المجتمع والكنيسة أما الرهبنة أو التبتل فهو فرع، أنه طريق الكمال لمن استطاع إليه سبيلاً، كما أن الكنائس الشرقية احتفظت بحقها في سيامة كهنة متزوجين، والأمر بين يدي أسقف الإيبارشية، ولعل الدعوة ملحة في الغرب لسيامة المتزوجين إلا أن الفكر الغربي لا يزال متردداً في قبولها وفى تحقيقها.

أسرة الأستاذ جرانت تعيش في حي الخوخة الشهير في بردنوها، ليست ذات ثراء ضخم ولكنها ميسورة الحال، فأبوه فلاح أصيل يمتلك بضع فدادين زراعية، أعطاها عمره وسقاها بعرقه الطاهر، أمي لم يدخل مدرسة، لكنه أمتلك حكمة الزمان وخبرة الحياة، عرف في القرية باستقامة السيرة لا يشوبها عيب ولا يجرحها سلوك مشين وله ولدان وبنت واحدة، وحين ترك جرانت الدير لم يحزن

والده كم يحزن الأهل في الريف، أنه يعرف أبنه حق المعرفة، ويدرك أنـــه يميـــل إلى التمتع بملذات الحياة وليست لديه ميول للزهد أو النسك، وفى القرية يقام مـــأتم حين يترك الولد أو البنت الدير يرون في ذلك غضباً من السماء أو لعنة من الله، إذ كيف ترفض النعمة، وأغلب الظن أن هذه المشاعر قد تطورت مع الزمن وأضحى الخروج من الدير لا يؤلم الأسرة ولا يصبح عاراً أو سبة.

الابن الأكبر لم يفارق والده ولم يفترق عن الأرض اكتفى بالابتدائية ورث عشق الزراعة والتفاني في العناية بها، أما جرانت فقد شـجعه أبـوه علـى مواصلة الدراسة، فألتحق بجامعة القاهرة كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية، إذ لم تكن قد أنشئت جامعة المنيا ولم يكن نظام التوزيع الجغرافي للطلبة سارياً.

لم تذهب سدىً تلك السنوات التي قضاها في الاكليريكية صـــاغت حيـــاة الدير وجدانه المسيحي، عمقت مداركه الروحية غرست في أعماقه إيمـــان لا يتزعزع، لم تنقطع صلة جرانت بالكنيسة الكاثوليكية يوماً من الأيام، حتى بعـد أن رحل إلى فرنسا، وعمل بها مترجماً، ظل مؤمناً، مواظبـــاً علـــى الصـــوم والصلاة، لم تؤرقه حياة الصخب في باريس، ولم يجرفه تيار المتع المتاحـــة والعبث المنتشر، وظل يحمل دعوة كهنوتية في كيانه وما أكثر ما كان يمـــزح: ليتهم يصرحون للمتزوجين أن يكونوا كهنة في الكنيسة الكاثوليكية جمعاء.

أسعده كثيراً نبأ تعيين زميله صاحبنا الكاهن الشاب راعياً لكنيسة قريته، لـم يكن قد حصل على الليسانس بل كان طالباً في السنة الثالثة، لم يفترقـــا لحظـــة خلال عطلة الصيف أو أيام الأعياد، أعتبره شقيقاً له، ظل عوناً في كل ما يحتاج إليه، كثيراً ما سافر الاثنان معاً إلى القاهرة لقضاء بعض الحاجـــات، يمضيـــان أوقاتا في نقاش ديني أو فلسفي، يذهبان إلى حقل والده، يقدم لهما أخـــوه الأكـــبر أعواد قصب السكر، وأحياناً الفول الأخضر، وأحياناً نبات الحلبة الخضراء، ولـم يكن يبخل على صاحبا الكاهن بشيء يهديه أقراص عسل النحل طازجـــة نقيـــة شهية وقد عنى أخوه بتربية النحل كمصدر لدخل بجانب اهتمامه بالزراعة.

توهجت فكرة في عقل جرانت، لم يتردد في بسطها لصاحبنا الكاهن لـــم يكن يخفى عنه أفكاره، لم يكن يخجل من البوح بما يدور في ضميره، قال لـــه

وقد جلسا يشربان الشاي الذي أعده لهما أخوه الأكبر، وسنابل القمح الذهبية تحيط بهما مع نسمة هادئة تداعبها:

- اسمع يا أبونا، لماذا لا تنتسب إلى الجامعة، أن لديك متسعاً من الوقت: في هذه القرية، فمنذ الصباح الباكر وحتى عودة الفلاحين إلى منازلهم عند الغروب يمكنك أن تذاكر دروسك وأن تجتهد لتحصل على شهادة الثقافة (من منازلهم)؟

- ما هذه الفكرة المجنونة يا جرانت.

- كل إبداع في الحياة هو جنون في بدايته.

- كيف أسافر إلى القاهرة؟ والجامعة باهظة التكاليف (ولم تكن مجانية التعليم الجامعي قد فرضت).

- ما عليك إلا أن تملأ الاستمارة الخاصة بامتحان الثقافة وعلى أنا أعداد كل الكتب اللازمة.

- يجب أن أخطر المطران بهذا المشروع؟

- وهل يرفض المطران أن يتثقف الكاهن مادامت الرعاية للقرية لا تنقص ولا تضار.

- قال الكاهن في شئ من التردد وقد أعجبته الفكرة: كاهن يذاكر دروس الثقافة، ويدخل الامتحان بزيه الأسود ومع تلاميذ هم من عمر أبنائه

- قال جرانت: وهل في ذلك عيب، هل تنسى أن سعد زغلول زعيم الأمة وثورة ١٩١٩ حصل على ليسانس الحقوق في الأربعين من عمره؟

- وما قيمة شهادة الاكليريكية، ألا تكفى للكاهن؟

- ضحك جرانت في سخرية، هل هي قمة الثقافة؟ لقد تعلمنا في الاكليريكية، وكان بها راهب دومينيكاني هو الأب جومييه حاصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية وموضع رسالته كان "المحمل النبوي" ورئيس الاكليريكية الأنبا اسطفانوس سيداروس حاصل على الدكتوراه في القانون فلماذا لا تجرب خوض الدراسات التي تتفق مع ميولك؟ ستخدم الكنيسة أكثر بثقافة أعمق، وستخدم رسالة الإنجيل بصورة أكمل بمواصلة الدراسة.

- قال الكاهن وقد بعثت فيه الفكرة طاقة جديدة للعمل: دعني أفكر.

- فكر كما تشاء - غداً سأذهب لشراء استمارة شهادة الثقافة والكتب اللازمة وما عليك إلا أن تعد صوراً فوتوغرافية وهذا أمر يحتاج إلى مشوار إلى مدينة بنى مزار.

وتمضى الأيام..

وتزدحم الذكريات..

ينجح صاحبا في امتحان الثقافة (الثانوية العامة حالياً) ويلتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة، قسم اللغة العربية عميدة القسم الدكتورة سهير القلماوى، أساتذته هم د م شوقي ضيف، يوسف خليفة، حسين نصار، يخوض صاحبنا بحر الدراسات العربية والإسلامية، دراسة الحديث والفقه، والشعر، يدخل معمعة الحوار الديني، الكاهن في السنة الأولى في قسم اللغة العربية وجرانت في السنة النهائية الليسانس بقسم اللغة الفرنسية، المبنى واحد، قسم في الدور الأرضي (الفرنسي) والآخر في الدور الثاني.

لم تزل العلاقة الوطيدة بين صاحبنا الكاهن وبين الأستاذ جرانت الذي نجح في فرنسا، وثبت أقدامه وحصل على الجنسية الفرنسية وأصبح يحمل الجنسيتين: جنسية بردنوها أقصد جنسية مصر، والجنسية الفرنسية.

وتطوف الذكريات بعقل صاحبنا الكاهن، ويظل معترفاً بفضل العلمانيين عليه، لقد فتح أمامه أفق رحب واسع وعرف كيف يمكن لكل علماني أن يؤدى رسالة عظيمة في كل موقع ومجال في كنيسة المسيح، أدرك أيضاً كم هي مؤثرة سنوات الاكليريكية في تكوين الشباب سواء في ذلك الذين ينالون نعمة الكهنوت، أو الذين ينالون نعمة الحياة العلمانية، أن الروح القدس يعمل في كل إنسان مخلص نقي.

مذكرات كاهن في الأرياف 11

هذا اسم غير حقيقي لرجل حقيقي، عرفته وزرت بيته أحياناً، يدعى العم كِشك، بكسر الكاف الأولى، رجل في السبعين من العمـــر، واســع الثراء، يمتلك الأراضي الزراعية الخصبة، يقال أنه يضع آلاف الجنيهات في خزينة لا يعلم مكانها غيره يطبق حكمة الفراعنة الذين أخفوا كنوزهم تحت الأرض، فعرف المثل: السر في بير، أنه منافس لأولاد العمدة فــي الغنى الفاحش.

ضخم الجثة، مسرف في الطول، مسرف في العرض، يمتد كرشه أمامــه مسافة كبيرة، أسمر اللون، جاحظ العينين، كل ما فيه ضخم، جسده، صوتـــه، يضع طاقية كالقرطاس فوق رأسه، حاد الطبع، سريع الغضب، ملامحه فيـــها قسوة وعنف، يكره الأطباء ورجال الدين والفقراء، لم يدخل الكنيسة منذ ثلاثين سنة، عاشق للعمل حتى العبادة فهو مزارع ناجح وتاجر ذكى ، يتقن القـــراءة والكتابة، يقع داره خلف نقطة الشرطة، بناه على أنقاض دار أبيه وجده، يقـــال أنه وجد آثار فرعونية جلبت له مزيداً من المال، ومنطقة المنيا والفيوم، مـــن أشهر المناطق التي تزدحم بالآثار وبالتجارة فيها، داره مبنى بناء حديثـاً مــن

دور واحد، ليست له أي صلات بجيرانه أنه عالم مقفل... كره زوجته الفاضلة المقدسة مريم لأنها لم تنجب له ورثة تشتد كراهيته لها كلما زادت ثروتـــه، لا يعرف إن كانت عاقرا أو أن كان هو العقيم، لم تعرف القرية له مثيـــلاً فـــي البخل فإذا دخل جنيه جيبه فهو مفقود لا يعود وهيهات أن يخرج منه، يحتقـــر الفقراء ويرى الفقر عقابا من السماء للكسالى، لا يسهم في أي مشروع خـــيري فالقائمون به سماسرة السماء كما كان يلقبهم أنه عم كِشك الشهير ببردنوها فـــي أوائل الستينات.

أما زوجته – فسبحان الله – هي النقيض تماماً لشـــخصية زوجـــها اقرب إلى القديسات منها إلى سائر النساء زارت القدس مرة واحدة ســـنة ١٩٥٠ ولم يسمح لها زوجها بزيارة ثانية، لماذا هذه التكاليف الباهظـــة وللعذراء أديرة مقدسة في كل نواحي بردنوها، هكذا يقول كِشك، فمريـــم زوجته لا تتخلف عن قداس الأحد ولا تهمل فرائـــض الصـــوم، تصلـــى الأجبية وتحفظ عن ظهر قلب بعض المزامير والآيـــات، تعطـــف علـــى الفقراء والمعوزين ولا ترد سائلاً، على وجهها الحزين لمحة جمال فطرى لم تمحها السنوات الخمسون ولا تغضب حين يتندر بها نساء القرية فـــي لهوهن وعبثهن، يقلن لها كيف تطيقين العيش مع هذا "المتوحش" فـــترد بابتسامة مسالمة هاأنذا أمة للرب فليكن لي بحسب قولك.

لم تنجب مريم، ولم تعرف سر هذا العقم أهو فيها أم هو فـــي زوجـــها، أخواتها لهن بنين وبنات، سلمت أمرها للرب لكن هذا الإيمان لا يمنع بكاءهـــا

الحار المتصل حين تسمع أن إحدى نساء القرية قد ولدت طفلاً تدخل مخدعها، وتترك العنان لدموعها.

سمع الكاهن الشاب أن الرجل البخيل، قد طرد زوجته المقدِسة (بكسر الدال) الزوج الطيبة الصالحة بل وضربها ضرباً مبرحاً وسلبها كل حليها ومالها؛ دهش صاحبنا الكاهن إذ لم تتبرم مريم قط من حياتها ولم تكن تكره زوجها، لم يكن صاحبنا قد أدرك عمق أسرار خبايا النفس البشرية وأن الحياة الزوجية رسالة صعبة وأن عدم الإنجاب قد يحولها إلى جحيم وبخاصة مع رجل مثل كِشك له أموال كثيرة وإيمان قليل.

ظن صاحبنا الكاهن أن باستطاعته أن يحل مشكلة مريم مع زوجها، فلباقته وحسن كياسته سلاح قوى كما أن للكاهن مكانة رفيعة وصوتاً مطاعاً في القرية، سعى إلى بيت كِشك ذات يوم عند الغروب، وجده جالساً وحيداً على كرسيه أمام عتبة داره، يدخن المعسل الأسود، وبيده كوب شاي، يحلق في الفضاء الفسيح وقد كساه الغروب لوناً رمادية حزينا، حيا كِشك تحية رقيقة ناعمة، ردها ببرود شديد ثم أنتفض واقفاً، لم يقبل يد الكاهن وإنما جذب كرسياً وقال في صوت متبرم: أتفضل يا قدس أبونا، صفق بيديه، خرجت خادم سمراء من أولئك الأفارقة الذين توزعتهم بيوت الأغنياء وقصور الباشوات ودواوين العمد، طلب منها أن تعد فنجاناً من القهوة للكاهن والقهوة تقدم في القرية للشخصيات الهامة.

رنا صمت عميق، لم يفتح أحدهما فمه للحديث، مرت لحظات حتى قدمت الخادم القهوة وأسرعت عائدة، لملم الكاهن شجاعته وقال في نبرات متأنية:

– فين المقدسة مريم يا عم كِشك؟

– لم يجب الرجل. رفع كوب الشاي وأخذ رشـفه منـه محدثـا صوتـا مزعجاً، ثم أفرغ الكوب في جوفه، شد نفساً من الجوزة، وأطلق الدخان مـن فتحتي أنفه، وتنفس قليلاً ثم قال في كلمات بطيئة حاسمة كئيبة

– موضوع خاص. صعب على كاهن شاب مثلك أن يـدرك أسـراره . مريم عند أختها

– أنا حضرت لزيارتك بخصوص هذا الموضوع

– اسمع يا قدس أبونا أنا لا بروح الكنيسة. ولا عايز الكنيسة تجي عندي.

– قال الكاهن ففى شبه توسل: ليه بس يا عم كِشك الكنيسة عملت لك أيه.

– وهنا انفجر الرجل كبركان ثائر وجد منفذا لنيرانه وأخذ يقذف جمـراً قال: الكنيسة عملت لي أيه أنا لم أنجب. زوجتي عـاقر. لفيـت علـى كـل المطرانيات قابلت القسس والمطارنة. محدش نفعني. أنا عايز خلفه. عايز عيل يورثني. عايز أطلق المقدسة علشان مبتخلفش. المسيح ماقلش كـدة. الكنيسـة ظالمة وقوانينها قاسية. ناس كتير بتسيب الكنيسة علشان الموضوعات دي، نعم أنا طردت مريم أعمل بيها أيه، مابتخلفش. تبقى مش ست ويبقى مش جـواز فيه منطق غير كده.

- اضطرب الكاهن الشاب، لم يعرف كيف يتدارك الأمر صمت لحظة واستجمع قواه، وفى نبرة وعظ قال للرجل: اتجوزتم من كام سنة.

- من خَمسٍ وثلاثين سنة.

- هل كانت الزوجة الصالحة التقية

- أقولك ايه. ولا قديسة زيها. بس أنا عايز خلفه. حتة عيل يورث كل شقايا. أنا عندي سبعين سنة بس صحتي بمب. عايز أتجوز تانى فيها حاجة دى.

- قال الكاهن في نغمة جادة. افترض يا عم كيشك أن الموضوع بالعكس. يعنى زوجتك قالت هذا الكلام، هل تقبله؟

- جرى أيه يا أبونا أنا الراجل

- يعنى أيه أنت الراجل

- يعنى الراجل غير الست. أمال درستوا أيه في المدارس إن كنت عايز تخدمني شوفلى حل: أعطني شهادة أتجوز. زورا لي شهادة، اشترى لي شهادة أدفع اللي أنت عايز فيها!!

- سرح الكاهن بعيداً في أفكاره. طار من هذا السجن الزمني. تذكر كل القيم المسيحية. ومدرسه وهو يصرخ في الفصل لا طلاق في المسيحية، إن

أعظم ملامح المسيحية وأقدسها السر الأعظم، سر الزواج . في البدء خلقهما ذكراً وأنثى... أفاق على صوت كِشك يقول له:

- سرحت في أيه!! مش قلت لك أنك لسه كاهن شاب نظر إليه الكاهن وأحبه قال في حنان بالغ سأطلب منك أمراً واحداً وأعدك بحل مشكلتك. تهلل وجه كِشك بعد عبوس وقال أنا تحت أمرك

- قال الكاهن أولاً صالح زوجتك واذهب إليها وأرجعها إلى بيتك ثم تعال يوم الأحد واعترف وتناول القربان واعدك بأن المشكلة ستجد حلاً..

- استغرب كِشك، ثم سأل هل عندكم في مصر حلول لهذه المشاكل؟ أجاب الكاهن دون أن يدرى معنى لكلماته: سنضع المشكلة بين يدي المسيح في سر القربان وسنطلب شفاعة أم النور هذا إيماني وليس هذا كذباً أو خرافة، واثق أننا سنجد حلاً.

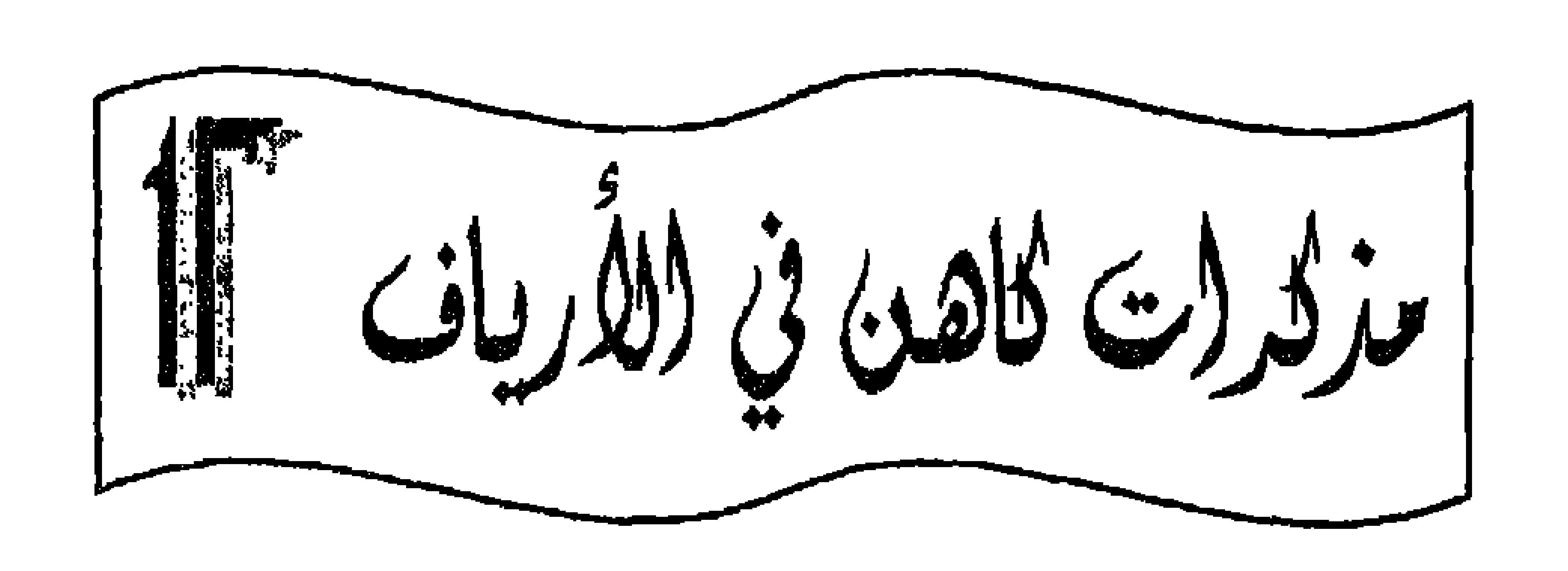
- قال كشك ضاحكاً: المقدسة هتموت

- قال الكاهن يمكن.. وشاركه بضحكة مصطنعة

- قال كِشك سأكون عند حسن ظنك. ستعود مريم الليلة إلى البيت. سأذهب للاعتراف وللمناولة ولكن هذه آخر فرصة أعطيها للكنيسة حتى تحقق رغبتي.

عاد الكاهن إلى بيته حائراً قلقاً، في قلبه حزن وفى عقلة حـــيرة وعنـد الصباح جاءه الشماس يقول له:؛ البقية في حياتك عم كِشك "روّح" وهو تعبــير الفلاحين عن الموت...

وتمضى الأيام...



لا يختلف اثنان أن العائلات المسيحية المتمسكة بإيمانها، المحافظة على حياتها الروحية المتصلة بسر القربان، هي العائلات التي تمد الكنيسة في العالم بالدعوة الرهبانية، إنها النبع المتدفق بالتقوى الذي يسقى عطش البشر إلى عطاء المكرسين والمكرسات.

لذلك في أنحاء العالم، في أقصى شماله وفى أقصى جنوبه، في أطراف آسيا وأطراف أمريكا الجنوبية غالبية الكهنة والمطارنة والرهبان والراهبات من العائلات المتوسطة التي لم يفسدها ترف أو رفاهية ولم يسحقها بؤس وعوز، ليس معنى ذلك أن العائلات الغنية والعائلات الفقيرة لا يخرج منها كاهن أو راهبة وإنما معناها أن العائلات المتوسطة هي العمود الفقري لجسد المجتمع، على المستوى الاجتماعي والأخلاقي والروحي.

لم ينقطع نشاط الرَاهبات المصريات في بردنوها حتى اليوم، ومنذ أربعين سنة بالتمام والكمال أي في سنة ١٩٦١ كانت أربع راهبات مصريات يمارسن نشاطهن الرسولي في بردنوها، يأتين من مدينة بنى مزار حيث لهن مدرسة عامرة ودير كبير.

تأتي الراهبات صباح يوم الجمعة، اثنتان ينهمكن في تطبيب السيدات والآنسات، طباً خفيفاً إن صح التعبير، إعطاء أبرة، علاج العينين، والأسنان، واثنتان يقمن بمهمة تدريس الدين المسيحي للأطفال...

لم يكن التطبيب هو الهدف

ولم يكن إعطاء الدروس الدينية هو الهدف

وانما معايشة الناس البسطاء، وقضاء يوم زاخر بالمحبة والسعي إلـــى إيداء النصح والإرشاد، والاستماع لكل محتاج، ذلك هو الهدف، أنه "الإنسان"

تتخذ الراهبات ما يتخذه فقراء الناس من مواصلات، لا يملكـــن سـيارة خاصة، يلبسن ثوبهن الرهباني من قماش يستخدمه بسطاء النـــاس، لا تضــع الراهبات أي مساحيق للزينة كما لا تعرف الراهبة العطور وأنواعــها، بعـد القداس تجلس الراهبات مع نساء القرية لتناول طعام الفطور، لا يختلفن عنـهن في شئ، إلا في التحفظ في الكلمة وفي الحركة وفي الابتسامة.

أغلب نساء القرية تقبل يد الراهبة، ترى فيها رمزا مـــن رمــوز سـر الفداء، تطلب منها أن تصلى لها، أن تضع يدها على الرأس، أن تدعو لطفلــها دعوات صالحات، وبعض النساء القادرات يدعو الراهبات إلى بيوتهن، لتنـاول الغذاء أحياناً، أو لزيارة مريضة، أن الراهبة في القرية رمز متحرك حي يرمز لاستمرارية مسيحية الفداء والخدمة، وقد تجد النســاء شـجاعة فـي البـوح بمشاكلهن للراهبة بينما يلفها الحياء عند الحديث مع الكاهن.

كان صاحبنا الكاهن الشاب، يرحب بالراهبات ترحيباً واضحـا صادقـا يثق في أهمية رسالتهن، ينسق معهن في العمل الرسولي، يتحول كل يوم جمعة إلى مهرجان اجتماعي، لخدمة القرية، يعرف ضابط النقطـة موعـد مجـيء وانصراف الراهبات ويبدى لهن كل احترام واجلال، وعساكر النقطة أحيانـــاً يطلبون زجاجة ميكروكروم أو قطرة للعين أو للأنف والراهبات لا يبخلن فـي تقديم العون وتلبية حاجتهم، وللمسلمين من أهل القرية نظـرة أكبـار ومحبـة للراهبات، أنه تقليد إسلامي موروث احترام الرهبان والراهبات والأديـرة، أن المسلم المصري يشعر بأن شيئاً "روحيا" ينبغي احترامه في أشخاص المكرسين ولا سيما إذ رأى فيهم صدق الحياة الروحية وعمق التقوى.

أن المجتمع المصري من أكثر المجتمعات الإنسانية تفهماً لحياة الرهبنة بل وتقديسا لهذا النمط من العطاء والتضحية، لعل ذلك يعود إلى الجذور الرهبانية الممتدة في أعماق الوجدان المصري، أو لعله يعود إلى الدور الهام الذي نهضت به الرهبنة في التاريخ المصري على مر العصور.

والمجتمع المصري بمسلميه ومسيحييه لا يطلب من الراهب أو الراهبة إلا الصدق والوضوح في الحياة، يريد أن يرى تناغماً روحياً بين المضمون وبين الشكل، بين الباطن وبين الظاهر، بين الحياة الروحية الباطنية وبين السلوك الخارجي والممارسات اليومية العملية.

أن التبتل في المسيحية، هو الزهرة الروحية العطرة، أنها القنديل المتوهج دوماً في مسيرة البشرية ومهما تمردت حضارة الموت، ومهما تتمر عصر اللذة العابرة على قيمة التبتل، تبقى الحقيقة الصارخة في صخب الغرائز، العالم في حاجة دوماً إلى شموع التبتل والزهد لا غنى للحياة الإنسانية عن الذبائح الحية والمحرقات التي لا تموت لإنعاش سر الفداء، اليتامى، الأرامل، المعوقون، المهمشون، الضعفاء، المنبوذون، الجياع، المتألمون، المظلمون، كلهم في حاجة إلى قلب حنون، ويد تمتد للإنقاذ، وعقل متوهج بالخير، وأرادة صلبة صامدة، وبعبارة وجيزة كلهم في حاجة إلى المسيح الفادي الذي يتجسد بنوع حي وخاص في الحياة الرهبانية.

نعود إلى الراهبات اللواتي كن يخدمن قرية بردنوها في إخلاص نادر، قامت بينهن وبين القرية علاقة محبة، وكان صاحبنا الكاهن الشاب متحمسا لرسالتهن، وطلب منهن أن يكرسن إحداهن لمحو أمية هؤلاء القرويين، وأن يجهز أحد فصول المدرسة لهذا الأمر، ولكن الراهبات اعترضن على ذلك بقولهن هذا عمل من الأفضل أن يحمل رسالته الشباب المثقف من أهل القرية، فهم مقيمون في قريتهم، كما أن وقت الراهبات محدود وإمكانياتهم لا تساعدهن على هذا الأمر.

ولكن صاحبنا الكاهن أصر على تحقيق مشروعه بفتح فصل لمحو الأمية، وكم كانت صدمته قوية عندما لم يأت أحد، ولم يهتم الفلاحون بهذا المشروع وفهم من الراهبات، أن الإنسان الجائع لا يفكر في ملء عقله قبل أن يملأ بطنه، وأن مشروع محو الأمية ينبغي أن يعد له الإعداد الجيد... فطوى الكاهن فكرته، ولكنه ظل يؤمن إيمانا راسخاً أن قضية مصر، جوهرها الأمية ولم يزل ينادى بذلك حتى اليوم.



هذا الحديث لم تحفظه الذاكرة وحدها، وإنما كتبه صاحبنا الكاهن في أوراقه التي لازال يحتفظ بها بعد أربعين سنة مضت ولماذا أختص هذا الحديث بتسجيله على الورق دون أحداث كثيرة، أنه لا يدرى، لقد أثر فيه تأثيراً عميقاً، ويمكن القول أنه عنصر من العناصر التي دفعته دفعاً للدراسات العربية والإسلامية، ولك يا سيدي القارئ أن تصدق ولك ألا تصدق، فأربعون سنة كفيلة بتغيير المفاهيم وطرق التفكير والقيم الأخلاقية.

أسمها "خضرة" امرأة مسلمة، عجوز عبرت السبعين بسنوات، تدب على الأرض دباً، قصيرة قريبة جداً من الأرض، سوداء من أصل إفريقي، تلف جسدها النحيل المتهالك بملابس سوداء داكنة، سوادها لا يخفى شامة خضراء على ذقنها، لهجتها عربية بدوية أقرب إلى لهجة الغجر الذين كانوا يطوفون أنحاء مصر سعياً وراء الرزق ومهنتهم الرعي، لا تقرأ ولا تكتب.

لا تذكر إلا أنها أبنه لرجل إفريقي كان له سبعة من البنين والبنات، أبوها طلق أمها وهى طفلة، وعملت في بيوت الأكابر في قرية الكفور القريبة من بردنوها، تناوبتها الأقدار، خادماً من بين إلى بيت، لا تفرق بين الأغنياء المسلمين والأغنياء المسيحيين فهي تقول أن لجميع الأغنياء سمات مشتركة، الكبرياء، والغرور، واحتقار الخدم، تشهد بأن الفقراء أكثر كرماً وعطاء، هذه مقولتها.

كيف أتت إلى بردنوها، لقد هربت وهى شابة في الثلاثين بعد أن تزوجت ثم طلقت لأنها لم تنجب، جاءت إلى بردنوها تبحث عن عمل، وجدت في كنيسة الكاثوليك عمل الخادم على زمن راعى الكنيسة وتذكر أسمه لقد يدعى

الأب أدوار توفيق، مهمتها تنحصر في ملء الزير بالماء كل يوم، الزير الـذي هو مخزن الماء في سكن الكاهن، ترفض أن تكنس أو أن تقوم بعمـل أخـر، تعتز بكرامتها اعتزازاً شديداً تذكر رعاة الكنيسة في بردنوهـا، الأب بولـس نصير وقد صار مطراناً للمنيا، ثم الأب لويس غطاس، ثم الأب اسكندر رزق، ثم الأب بطرس سعد الله، ثم صاحبنا الكاهن الشاب واتصلت أيامها على عـهد الأب فرنسيس غطاس ثم أندراوس فهيم والذي أشترك مع أخوته المسلمين فـي تشيع جثمانها وقد تخطت التسعين من عمرها- رحمها الله.

تأتي خضرة مبكرة تحمل الماء في صفيحة نظيفة وتملأ الزير الذي يسـع أكثر من خمس صفائح، تأتي بالماء من أقرب صنبور (حنفية حكوميـة) فـي مدخل القرية تصعد السلم في هدوء، ولم يكن سلماً مرهقاً أو عالياً، تتمتم فـي ذهابها وإيابها بكلمة لا تفهم حاول صاحبنا مراراً كثيرة أن يلتقط شيئاً منها فلـم يفلح، لا تطلب شيئاً كأنها في غنى عما في الكرة الأرضية من كنوز، لم يعرف عنها أنها غضبت من أحداً، أو أغضبت أحد، تدخل الكنيسة أحيانـاً لتنظفـها تطوعاً وحباً في أم النور كما تقول فليس هذا بعضاً من مهمتها، تفرش سـجادة صغيرة في فناء الكنيسة تصلى، كانت أمنيتها أن تذهب للحج، لكن كيف يتحقق هذا الأمل وراتبها الشهري جنيهان، يدفع الكاهن جنيها ويجمع الجنيه الثاني من بعض المحسنين، (أعرف أن كهنة الجيل الحالي قد يدهشون من هذا الحديـث فقد أكل عليه الدهر وشرب، ولكن ربما نجد في الماضي عبرة).

أين كانت تقيم خضرة، كان لها عشة على أطراف القرية بجوار سـاقية من السواقي، أقامت العشة على مساحة ثلاثة أمتار مربعة، من جذوع النخـل، من أوراق الشجر، من أخشاب صناديق الصابون، كما كان لها حـب لتربيـة الفراخ التي تمرح في الحقل، تمد خضرة بالبيض، ويتصدق عليها أهل القريـة بأشياء كثيرة، في العشة فرشت حصيراً، ووضعت صندوقاً من الخشـب مـن صناديق الصابون نابلسي شاهين تحفظ فيه ما تراه مـهماً، ملابسـها، أدوات تكحيل عينيها، قطعة صابون، الشاي والسكر، وابور سبرتو، لمبة جاز، تلـك كانت ثروة خضرة، وكانت ترى أنها سعيدة.

عندما تميل الشمس إلى الغروب، تبدو الحقول في صمتها وجلالها كأنــها تحمل أكاليل الذهب، ليس حزينا تماما الغروب في الريف وليس مبهجاً تمامــاً، وإنما هو موكب خالد يودع نهاراً تطويه مسيرة الحياة تختلط فرحة العصــافير وقد تجمع شملها بين أغصان الأشجار، بصوت السواقي التي تغرف من بطــن الأرض الماء فيما يشبه لحنا موسيقياً، وبين الحين والحين نهيق حمار وثغــاء شاة، تدرك لماذا قامت الحضارة في صعيد مصر، فالمشهد يوحـــي بــالأمن، يفجر طاقة الإبداع، يكتب أجمل قصص الحب...

يعشق صاحبنا الكاهن الشاب حين يكون وحيداً، شغل ناظر المدرسة عــن نزهة الغروب، يسعى إلى عشة خضرة لا شبهة في هذه الصداقـــة، فــالمرأة تخطت السبعين وما أكثر الشبهات التي تحيق بأهل الريف وبخاصة فيما يمــس الصداقات بين الرجال وبين النساء، وتكثر الأحاديث حولها.

يجلس على حافة الساقية، يطلب أن تقدم له خضرة الشاي، يعرف أنــــها تهتم بتنظيف براد الشاي الأزرق المصنوع من "الصاج" فلــم يكــن اســتخدام الألمنيوم قد أنتشر، أما كوب الشاي فكان من الفخار، تحتفظ خضرة للكــــاهن بكوبه الخاص لا تقدمه لغيره، كما تضع الكوب فوق صينية نحاسية مســـتديرة كتبت عليها حكمة بخط نسخ حفظتها خضرة عن ظهر قلب وتقــول الحكمــة: القناعة كنز لا يفنى، يستمع صاحبنا الكاهن بشرب الشاي، ويذكر حــوارا دار بينه وبين خضرة

قال صاحبنا: ست خضرة أنت سعيدة

– يعنى ايه سعيدة

أنت مبسوطة مش ناقصك حاجة

ولا أي حاجة مبسوطة خالص. الحمد لله.

نفسك في حاجة

نفسي ربنا يخدني وأنا واقفه على رجلي. لحسن المرض مذلة. وأنا مقطوعة ماليش حد. أخاف أعيا أترمى زي الكلاب.

بعد الشر يا ست خضرة. أحنا نشيلك على راسنا من فوق.

لع. لع. يا أبونا دا كلام. بنى آدم تقيل قوى. العيا (المرض) لما بيتطول بيرخص البني آدم مهما كان عزيز.

قو ليلى يا ست خضرة. كم قسيس عرفتيهم في الكنيسة.

ماتعدش. أولهم اللي بقى قسيس كبير مطران أسمه بولس نصير. كان حته سكره. بيحب يضحك. وكان كريم قوى. خدمته وأنا بصحتي كنت شابه. وبعدين أبونا أدوار توفيق كان بيحب القرايه زيك كدء كان متعلم قوى وبيرطن فرنساوي وكان يحب الأكل النزيه واللبس النزيه. عايق قوى. وبعدين أبونا لويس غطاس. يا سلام الناس حبوه قوى قوى. صوته جامد يطول قوى في الصلاة وقرايبه كتار كانوا يجوا بردنوها. عشري قوى وبعدين أبونا اسكندر قريز (تقصد اسكندر رزيق) دا كان جد خالص ويروح مصر كتير. كان كريم معايا قوى ماطولش في بردنوها. عمره مازعل جد منه. وبعدين أبونا بطرس سعد الله وكانت أخته شقيقته معاه يا سلام ناس كمل. كان يحب الصلاة دايما يقرا الفرض قعد سنتين علم فيها العيال كتير. وبعدين شرفت أنت.

يا ترى بتقولي على أية

لما تمش نقول. دلوقت لع. بس باين عليك مش هطول في بردنوها. أصلك غاوي قراية يأبونا خليك معانا. دى بردنوها حلوه. وخيرها كتير وناسها طيبين. يعنى هم في مصر أحسن من هنا في أية

قوليلي يا ست خضرة. ايه رأيك في جمال عبد الناصر.

ضحكت بصوت عال، ولملمت طرحتها لتخفى فمها وقد أخلى تماما من الأسنان. باسمع أنه رجل كبير قوى. بس يا ترى هو حاسس بالغلابة اللي زينا. مين بيفكر في الفقراء. ثم التفتت للكاهن بنظرة جادة وتساءلت: هما

طردوا الملك ليه. هو راح فين. دا الباشوات اللي اشتغلت عندهم كانوا بيحبوه قوي. قال صاحبنا وهو يبتسم: أنت مهمومة بالملك راح فين. يعني مش حيلاقى حته. عنده فلوس كتير. لا قصدي انه بعد الملك ماشفناش إحنا الفقراء حاجة احسن. الغلا زاد. والناس تعبانه، قوليلى يا ست خضرة. أنت مبسوطة من شغلك في الكنيسة، الحمد لله. انتوا كلكم كويسين. أنا ست غلبانة. بس يا أبونا أقولك الصراحة وماتزعلش.

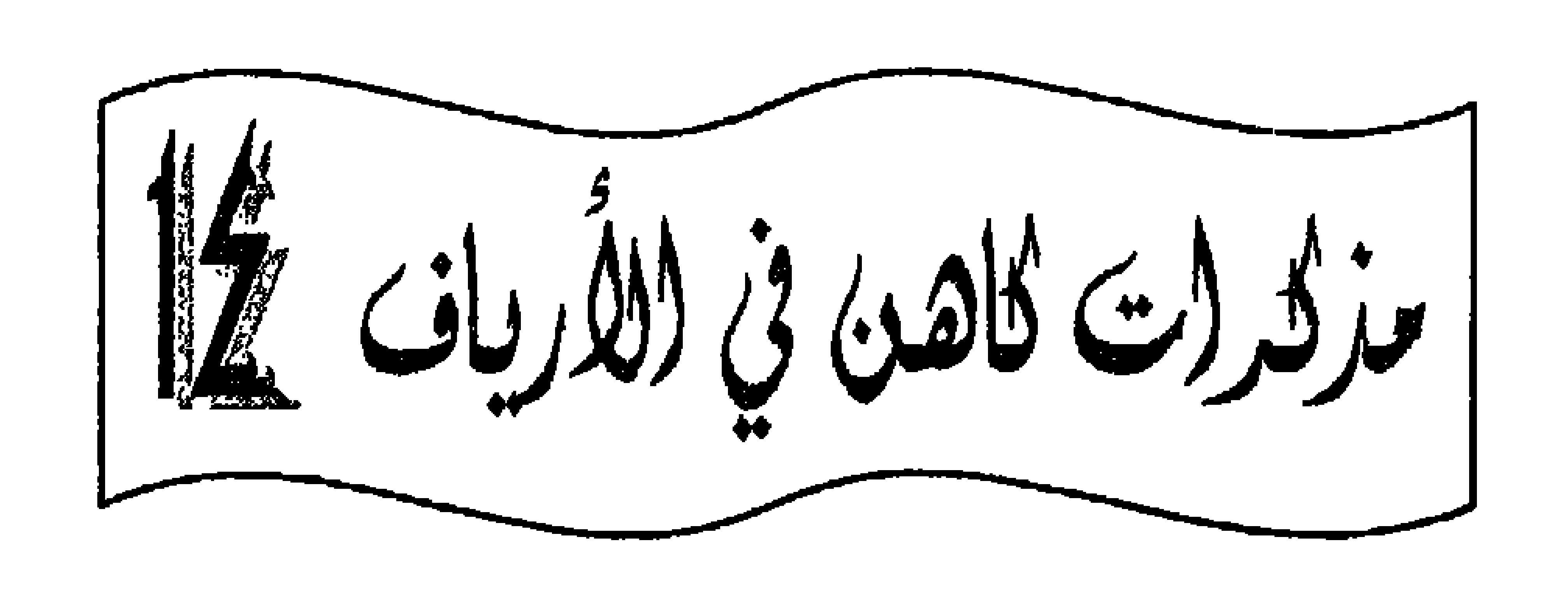
قال الكاهن وقد تنبه بتركيز إلى ما ستقوله: عمري مازعل منك يا ست خضرة.

بصراحة كدة: الصلاة قلت. أصبحت قصيرة وقليلة والناس مش كتير زي زمان. والقسس كلهم مشغولين قوى. زمان كنت أشوف القسيس دايما ماسك كتاب يقرأ، الفرض يصليه، يعول هم الغلابة، وكلهم كان في أيدهم سبحة بتاعة العدرا الحاجات دى بطلت مش عارفة ليه.

أية رأيك تزوري مصر يا ست خضرة.

بلاش (نقورة على يا أبونا) أي بلاش سخرية منى هاروح مصر أعمل ايه. قوللى روح القبر.. يأبونا الفقراء اللي زينا الموت لهم رحمة. نفسي يأبونا بعد ما أموت تذكرني في الصلاة أنا مصدقة أن ربنا يقبل كل صلاة طالعه من قلب صافى.

وتمضى الأيام.



لك أن تزور قرية مصرية من قرى الصعيد في زمن الصوم الذي يصومه الأقباط إكراماً وإجلالاً لمريم العذراء، هذا الصوم الذي يبدأ أول أغسطس في الكنيسة الكاثوليكية وفى السابع منه في الأرثوذكسية، سوف ترى أن القرية صائمة عن بكرة أبيها ولك أن تحكم بعد ذلك، أليس لمصر حتى اليوم ملامح قبطية، كم تأثر المسلمون بالأقباط، وكم تأثر الأقباط بالمسلمين؟ بل كم ظل شعب مصر، شعباً واحداً في تقاليده، في بساطة إيمانه، في أخلاقه، وبالطبع في ملامحه ووجدانه، إنها مصر، معجزة التاريخ وعبقرية الزمان والمكان كما شهد بذلك العالم المصري الذي لمع كالبرق وقد ترك موسوعته (أربعة أجزاء بعنوان شخصية مصر) أنه الدكتور جمال حمدان الذي تخلص من عبء التدريس في الجامعة، وآثر الانطواء ورفض الأضواء وصراع المنصب، وترهبن في شقته البسيطة ليخرج للعالم كنزاً من كنوز العلم والتأمل في تاريخ مصر ، رحمك الله أيها العالم الجليل.

قبل بناء السد العالي في أسوان، ودعني أقول السد العملاق كما كان صاحبه جمال عبد الناصر عملاق الأمة العربية له ما له وعليه ما عليه وهذا موضوع خاص، وبرغم كل شئ فالسد العالي أنقذ مصر من مجاعة ماحقة في الثمانينات، ولا يزال منجم الماء الذي يقيها على مر الزمن، أقول قبل السد العالي كانت مياه النيل تغمر جسد مصر من شمالها إلى جنوبها، تكاد تستحم مصر في مياهه المتدفقة، تنهل من عذب مائه كل القرى والكفور والحقول، تتشبع الأرض من طميه الأسمر أغلى من الذهب والماس، تتخلص من شوائب

النبات والحشرات والديدان بل والثعابين إذ تغمر المياه الجحور والحفر والكهوف والشقوق، لقد كانت أشبه بعملية تنظيف موسمي لجسد مصر، يبلغ الفيضان قمته في (الدميرة) كلمة قبطية بمعنى القمة سماها الفراعنة الشهر القصير وهو بين ستة أيام أو خمسة أيام بعد شهر مسرى (نهاية أغسطس) وحين تنحسر مياه الفيضان لا تملك ذاتك أمام أجمل مشهد طبيعي في العالم، مصر كلها من أقصى شمال الدلتا عند دمياط ورشيد، إلى جنوب أسوان تكسوها خضرة يانعة نضرة، فتفرح من أعماقك، تبارك الخلاق، تباركت مصر، وتأخذ التربة لوناً غامقاً يميل إلى السواد كعذراء بكر تخطف اللب بجمالها وتسحر القلوب بسكينتها وكأن مصر قد ولدت من جديد.

أغلب الصائمين يرفعون هذا الصوم إلى درجة سامية في العبادة ويعيشون أيامه نباتيين لا يقربون لحم الحيوان أو منتجات الحيوان، ولاسيما أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية آخرون من أصحاب الطقس الكاثوليكي يخففون هذا الحرمان ولا يمتنعون عن بعض منتجات الحيوان، وعرفت كثيرين في القرية يصومون أيامه صوماً شديد الحرمان فلا يقربون إلا طعاماً خلا من كل ألوان الدهون والزيوت بالرغم من أن في حياتهم ضنكاً وفي أيامهم بؤساً وشقاء إلا أن العذراء مريم لها المكانة السامية في وجدانهم واسمها الجليل له عشق خاص ورنين سماوي.

أما صاحبنا الكاهن الشاب وله ثقافته الكاثوليكية، فقد وقع في حرج شديد، أنه يعرف أن التفسيح الكنسي يفرض الصوم الاثنين والأربعاء والجمعة فمن حقه ألا يصوم الأيام الأخرى هكذا كانت تمضي الحياة في الاكليريكية وهكذا تعلم ولكن للقرية تقاليدها فهي لا تعرف وبخاصة أيام الصوم للعذراء وهي لا تتعدى أسبوعين معنى للتفسيح أو ضرورة تبيحة، فهل يصوم مع القرية صوماً خالصاً دون استثناء أم يصوم وفق ما تتيح له القوانين؟ أضف إلى ذلك أنه يحيا وحيداً فليس له مطبخ أو طباخ أو معين يعد له طعام الصوم وهو شهى له

رائحة جذابة وطعم يجرى الريق، فالمصريون أحذق شعب في فن التحنيط، السمك يحنط في زلع تباع وهى سلع الملوحة، والبلح يحنط ، وبعض النباتات تحنط كالملوخيا والباميا لا تستخدمها طوال السنة، والخبز يحنط (قراقيش) والجبن (القديم) قد يبقى في (المش) سنوات يكتسب طعماً خاصاً ، وأما الفول فحدث عنه ولا حرج فهو يؤكل مسلوقاً، ومسحوقاً (طعمية) ويؤكل أخضر طازجاً، ويؤكل مدمساً على نار هادئة، مائدة الأغنياء الصائمين عامرة بما لذ وطاب من كل هذه الأصناف ومائدة الفقراء يغلب عليها الفول، بصارة أو مدمساً أو طعمية، ويذكر صاحبنا الكاهن الشاب لونا من ألوان الطعام يطلق عليه (الشلولو) وهى الملوخية الجافة الباردة مع الثوم، إنها أكلة الغلابة والمعدمين، وكله صوم إكراماً لأم النور.

قرر صاحبنا الكاهن الشاب بعد أن قلب أمره وفكر كثيراً ، قرر أن يعلن صومه كأهل القرية، حتى لا يسبب عثرة لبسطاء الناس، وفى الوقت ذاته يستفيد من التفسيح الكنسي فيعد فرخة بين الحين والحين يوم الأحد في خفيه وفى غير اشهار.. للأيام المسموح فيها.

كان اليوم يوم الأحد، وقد أعد الفرخة ليلة السبت، أنه الطعام الوحيد الذي يتقنه، نظف الفرخة البلدي تنظيفاً جيداً، سلقها بماء وملح مع بصلة، سواها تماماً، ثم رفعها من الحلة ووضعها في صينية كبيرة وغطاها بصينية أخرى، وأعد الأمر ليحمرها أو ليقليها في سمن بلدي بعد نهاية القداس مباشرة ووضعها خارج النملية حتى تبرد ولم يكن يدرى ما خبأته له الساعات القادمة.

يمتد قداس الأحد إلى الساعة الواحدة ظهراً والفلاحون لا يتململون ولا يتبرمون، تجلس النساء على حصر فرشت على الأرض في الدور الثاني ، يشاركن الصلاة من وراء حاجز خشبي على شكل مشربية أو شبكة ومعهن الأطفال الذين لا يكفون عن النزول والصعود بين آبائهم في صحن الكنيسة وأمهاتهم في الدور الثاني، واغلب الظن أن تلك الأمور قد انقضى عهدها

وأبيح للنساء أن تصلى في صحن الكنيسة ، يجلسن في جانب بينما يجلس الرجال في الجانب الأخر وليس ككنائس العاصمة أو المدن الكبرى حيث يختلط الرجال بالنساء.

صعد الكاهن الشاب بعد انتهاء الصلاة، وصعد معه الشماس صموئيل رحمه الله، ونسى الكاهن الفرخة، وطلب من الشماس أن يعد له الإفطار، طبق الفول بالزيت والليمون مع بصلة كبيرة وكوب من الشاي.

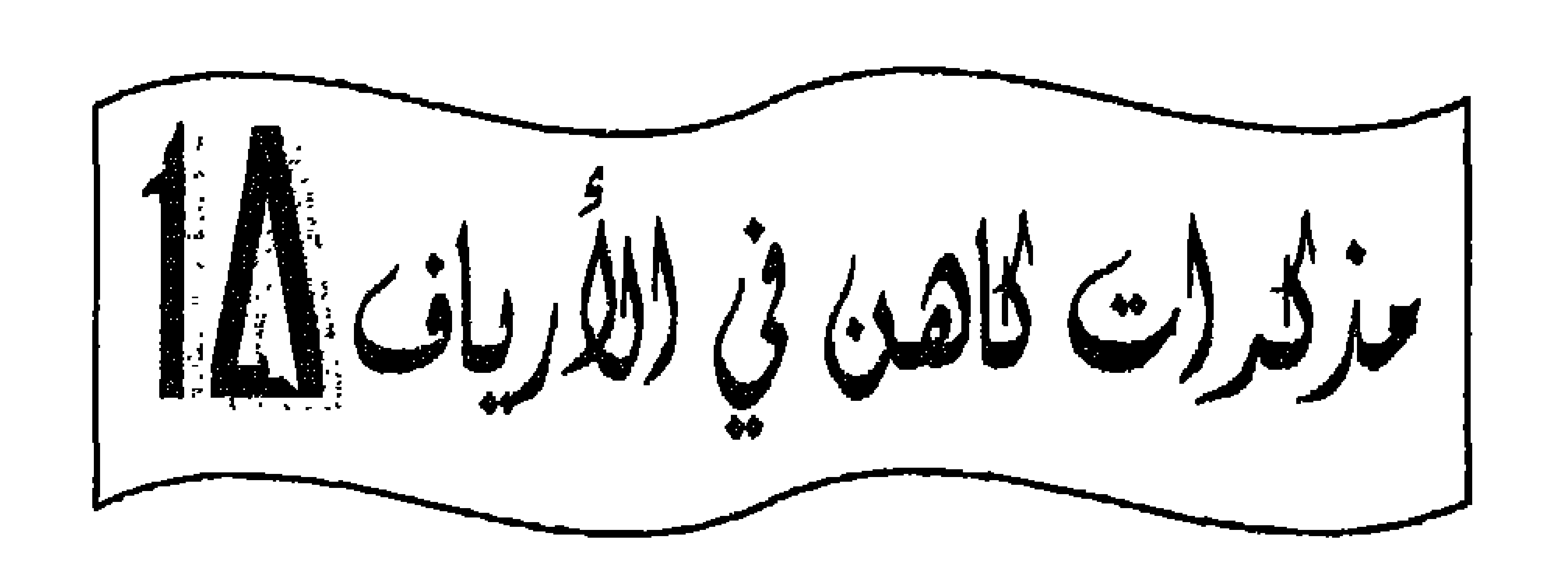
فتح باب الحجرة، تسمر مكانه، جحظت عيناه، لم يفتح فمه تطلع صموئيل إلى المشهد الغريب، قط كبير، تسلل إلى المطبخ جذب الفرخة كلها، أمسك بها صيداً ثميناً، لم يكن القط صائماً ولم يكن يدرى أنها الطعام السري لصاحبنا الكاهن الشاب.

صرخ صموئيل: هو أنت فاطر يا قدس أبونا.

قال الكاهن في صوت مهزوم: نعم الأيام المسموح بها.

قال صموئيل وكان على درجة سامية من النبل والنضج وفيها أيه لما تقول للناس الحقيقة.

ضاعت الفرخة، لم يشهر صموئيل بالحدث فقد كان ستراً وغطاء للراعى، ولعل العثور على شماس بهذا الإخلاص والتقوى والنضج نادر المثال، لم يحزن الكاهن على الفرخة، ولكنه حزن لأنه لم يكن صادقا بينه وبين ضميره، وبينه وبين شعبه، وأقسم لذاته منذ هذا الحدث ألا يكون إلا صادقا صريحا، وألا يتناقض باطنه مع ظاهره، وألا يخدع أحدا، وأن يعلن تعاليم الكنيسة بوضوح وبساطة مهما واجه من صعاب أو اعتراضات... وتمضى الأيام.



"مولد" وصاحبه غائب، مثل مصري رائع يصور أحوال الموالد في تلك الحقبة من الزمن، قبل أربعين سنة رحلت، استعدت بردنوها لزيارة مولد السيدة أم النور في نواحي سمالوط، لكن صاحبنا الكاهن غير رأيه، ورغب أن يزور مولدا كاثوليكيا، مع بعض من العائلات التي - اختارت السفر معه إلى دير درنكة.

قرية درنكة على بعد كيلو مترات قليلة من أسيوط، دقائق بالسيارة، قرية تقع على ربوة عالية أشبه بتل كبير، يحتضنها الجبل الغربى، جنوبها مدينة الغنائم الشهيرة برجالها تجار وكالة البلح ببولاق. القرية من اجمل قرى الصعيد ، تحيط بها الحقول الخضراء، ويحيط بها من الناحية الغربية والجنوبية جبل اشم كأنه حارس أمين المسيحيون كثرة في قرية درنكة، فلاحون، تخرج من أبنائهم كثيرون من الأطباء والمهندسين والمثقفين ولكن وأسفاه انهم يهجرون القرية ، يشقون طريقهم في المدن الكبرى يبنون مستقبلهم، ومنهم من هاجر إلى بلاد العم سام، الي أمريكا وكندا واستراليا، وبقيت درنكة وابنتها قرية دير درنكة لم يمسها تغيير كبير أو تقدم ملموس، فالفلاحون كما هم في بساطتهم لم تنقص الأمية كثيراً، لم يتغير وجه الحياة كثيراً برغم اقتحام الكهرباء وتوابعها من تلفزيون، وامتلاك السيارات فليست الحضارة هي الأشياء وانما الحضارة هي الإنسان.

وصل صاحبنا الكاهن مع عائلات بردنوها الي درنكة، تحولت القرية الي سوق، عشرات الألوف قدمت من القري، ويذكر صاحبنا أن المسئولين عن

الأمن قد اشتكوا كثيراً من هول النازحين الي المولد وكأنه يوم الحشر، بل قدر واحد منهم عدد المشاركين في الاحتفال بالليلة الكبيرة ، اقصد ليلة عيد العذراء (١٥ مسري = ١٥ أغسطس أو ٢١ أغسطس) قدر عددهم بمليون أنسان، كيف يعيشون بضع ليال - ماذا يأكلون- ماذا يشربون، انهم يحملون معهم زادهم، كيف يعالجون؟ هل هناك معني روحي لهذا التجمع المرعب - هل هناك فوائد دينية؟ هل هي نهضة روحية أم ماذا بالدقة

وهل من وسيلة للرقي بهذه الموالد الي مستوي رفيع من الإنسانية والحضارة وكيف؟ وهل الأموال التي تقدم والذبائح التي تبذل والعطايا التي يتبرع بها الناس هل هذه الإمكانيات المادية في خدمة الإنسان؟

وفي خدمة الحضارة - والارتفاع بمستوي الخدمات الإنسانية كل تلك الأسئلة في حاجة الي ضمير حي واع.

أقام الرهبان الفرنسيسكان ديرا عامراً بدرنكة، هو مكان للراهبات المرسلات لخدمة الإنسان، وبخاصة لخدمة الفتيات والنساء، انشأن مدرسة، ومشغلاً للخياطة، ومكانا آمنا لليتامى، راحة روحية في قلب القرية تحت سفح الجبل، واقيمت كنيسة جديدة في هذه القرية، نعم للحضارة نعم لتقدم الإنسان.

إذا سرت مسافة كيلو مترات نحو الجبل سوف تبهر يأخذك العجب، هنا دير درنكة، للأقباط الأرثوذكس، يقال أن العذراء حطت رحالها في هذا المكان، قدسته العائلة المقدسة بأنفسها - بحياتها - يا لعطر الذكريات، الروحية لا داعي للتنقيب في كتب التاريخ - لا داعي للبحث عن دقة وصحة الروايات التي تروي، هنا التقاليد هي الغالبة والحكايات التي تروي من جيل الي جيل، عن معجزات، عن حوادث شفاء، ضع العلم جانبا، والمنطق جانباً، الدير تحفة معمارية في بطن الجبل، انه امتداد لتاريخ الكنيسة القبطية رائحة الشهداء تعبق المكان وسيرة القديسين وبركات أم النور.

ساحة الدير في حضن الجبل تسع عشرات الألـــوف، يقيمـــون الخيـــام، يستأجرون الحجرات، ينسون مشاغلهم يهيمون حباً بالعذراء، تـــأتي أصـــداء الألحان القبطية من بطن الجبل، كصدى لقرون الأباء والشهداء كأنها أصـــدات قادمة من عمق التاريخ من بطون الماضي زحام شديد، أطفال تلعـــب الكـــرة، نساء ترتل، رجال جالسون في جماعات تتحاور في شـــوؤن الديـــن والدنيـــا، رائحة الطعام الصيامى تأتيك من كل ناحية. فريق الشمامسة لا يكل ولا يمـــل من ترديد الألحان القبطية وأغلبها مدائح مريمية.

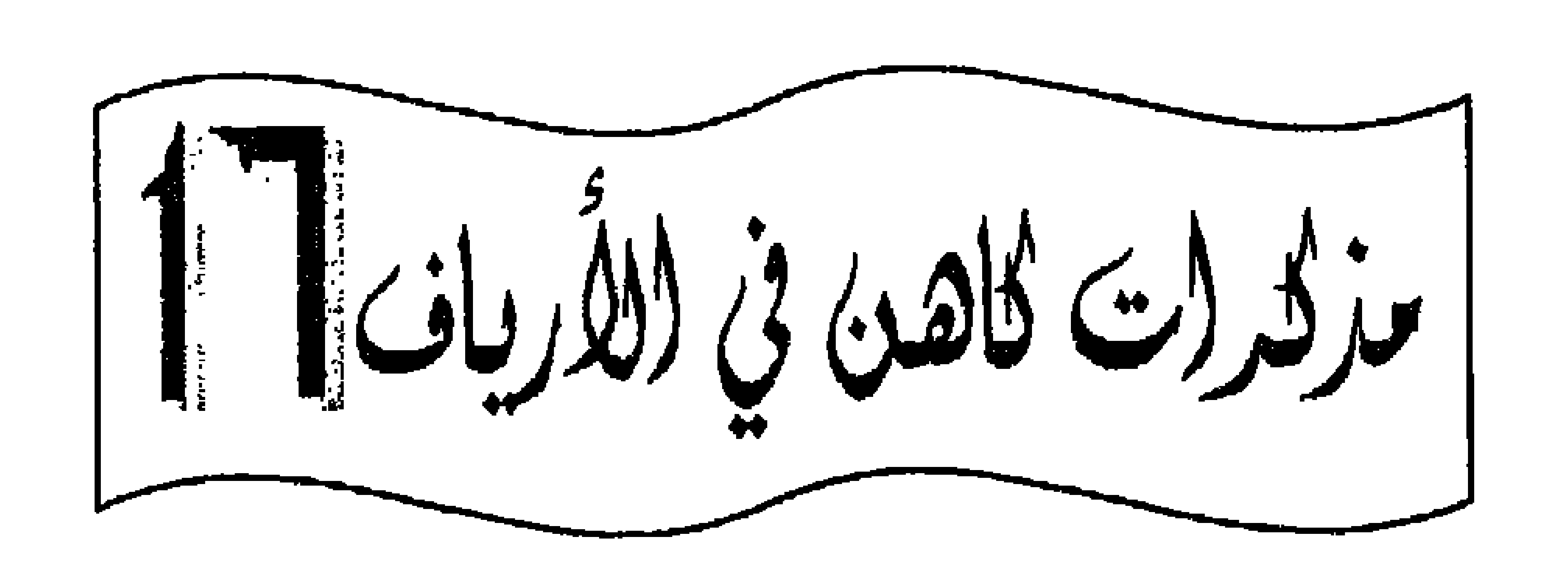
الكنيسة في كلا الديرين لا موضع لقدم فيها أفواج تدخل، وأفواج تخـــرج، الزغاريد لا تنقطع، عشرات الأطفال تنال سر العماد ، الجميع يســـتعد لليلـــة العيد، عيد أم النور، موكب العيد في كنيسة الفرنسيسكان فيه لمحـــات غربيـــة الطواف بتمثال لأم النور يحمله الرجال على أكتافـــهم والآلاف تحيـــط بـــه، والكهنة بملابسهم الرسمية والرهبان من حولهم.

أما في الكنيسة القبطية التي تحرم إقامة التماثيل فـــالتطواف بصـــورة أم النور تحمل طفلها، موكب مهيب لكنه صاخب ، مســـلمون كثـــيرون يحبـــون المرأة التي اصطفاها رب العالمين، مشهد الموكب بعض من تاريخ الأديان في مصر، بعض من ملامح إنسانيتها الروحية ووحدتها الوطنية ، ذلك كله لا يمنع انتشار المتسولين في كل أنحاء المولد، متسولون من كل الفئـــات، أصحـــاب عاهات، عجزة ، أطفال، نساء يحملن وليدهن، ذلك كله أيضاً يختلط بـــأصوات الحيوان، نهيق الحمير، ثغاء الحملان، نباح الكلاب، شجار بينها وبين القطـــط، وقد تشهد أيضاً حيوان العرس، والفئران، أنه عالم المولد ، أنه دنيا غاب عنها العقل حينا وغلبت عليها عاطفة دينية في حاجة إلى كثير من أمور الحضـــارة والتقييم والتنظيم.

نزل صاحبنا الكاهن ضيفاً مع زملائه الكهنة في دير الفرنسيسكان يقضي الليل معهم، يصلى قداس الصبح معهم ثم يسعى لينضم لجماعة يردنوها الذيـــن

أقاموا في بعض حجرات متلاصقة ولا داعي لإثارة أمر الشؤون الصحية في أبسط حاجاتها فالمكان الذي لا يصلح لإقامة خمسة أشخاص قد يقيم فيه خمسون شخصاً ويكفى هذا القول للتعبير عن الحياة خلال المولد (لعل الأمر قد تغير بعد أربعين سنة).

تقدمت امرأة مسنة إلى صاحبنا الكاهن الشاب، هل هي في الثمانين أو التسعين ، اغلب الظن أنها بينهما أحنى الدهر ظهرها، ملابسها مهلهلة، وشم الصليب على جبينها وذقنها وعلى معصمها، علقت في رقبتها سبحة اشترتها من كنيسة الدير، هيكل عظمى تغطيه ملابس سوداء من الرأس إلى القدم، اسمها سنيورا، عرف صاحبنا أسمها حين قالت له أنا المقدسة سنيورا، عندي نذر وكشفت عن كفها يقبض على بضع جنيهات قديمة متآكلة لعلها ثلاثة جنيهات أو خمسة، تحويشة لها قيمتها في ذلك الزمان قالت للكاهن الشاب، النذر دا أعطيه للكنيسة اللي تحت واللا للدير اللي فوق، أيهما أحق، أنا نذرته لأم النور، تمالك الكاهن الشاب وحبس ضحكة ودت لو تنطلق وقال لها: يا أمي هنا مولد العذراء وهناك مولد العذراء، على كيفيك أنت، قالت له أنا عارفة الكلام دا، بس مين فيهم أحق بالندر، يعنى العذراء حتقبله منى فين، قال الكاهن مبتسماً يود أن يقبل رأسها على هذه البساطة... ضميرك بيقولك ايه، قالت: كله للعذراء، بس فوق مقدرش اطلع أنا عجوزة، قال لها اعطيه للعذراء هنا أكيد هتقبله العذراء.. قبلت يد الكاهن، أسرعت في خطاها الثقيلة تحمل تاريخ كنيسة مجاهدة صابرة شهيدة، وتحمل أيضاً آلام الانشقاق، والتنافس، وفوق ذلك كله تحمل أوجاع الموالد...



ينبغي أن تبقى دوماً العلاقة بين الكهنة ورجل الشرطة علاقة مودة واحترام، والاتهام يشير في أغلب الأحيان إلى نفاق رجال الدين للسلطة واحتواء السلطة لرجال الدين، ولا ينسى التاريخ ثورة كهنة آمون على فرعون مصر إخناتون حتى اضطر إلى الهرب إلى الشمال وأقام في تل العمارنه (ملوي) وترك عروس عواصم الحضارة القديمة طيبه هروباً من ثورة رجال الدين بعد أن أعلن العبادة للإله الواحد ..

كما لا ينسى التاريخ الثورة الفرنسية التي حاربت المثلث الفاسد كما ادعت الملك ورجال القصر ورجال الدين ولازالت صورة رجل الدين في ذهن العامة ملتصقة بأهل السلطة وبين رجال الدين، فمن منهم تكون له السيادة على وجدان الشعوب؟

كان ضابط النقطة في بردنوها برتبة النقيب، شاباً فارع الطول، رياضي الجسم، أبيض البشرة، لا تشك لحظة أنه من سلالة الباشوات والعائلات الموسرة... لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، أنيقاً دوماً، هادئاً في حزم، قليل الكلمات.

لا يتذكر صاحبنا إلا بعضاً من أسمه وهو أبو حمرة لعله اليوم على المعاش بعد رتبة اللواء، لا ينسى صاحبنا الكاهن الشاب اللقاء الأول بينهما، لقد جاء من نقطة الشرطة غرب البلد بجوار الطاحونة، سيراً على الأقدام بالرغم من أنه يعشق ركوب الخيل، والتجول بفرسه أنحاء القرية، ثم ينطلق على الطريق الزراعي في

سرعة البرق، متريضاً، وكأنه فارس من فرسان زمان، جاء إلى الكنيسة صباح عيد الميلاد ليقدم التهنئة للكاهن الشاب ولشعبه الجالس معه لاستقبال الزوار أمام بوابة الكنيسة التي أعدت لهذه المناسبة أعداداً مقبولاً.. لم يكن الشتاء شديد البرودة، وما أندر المطر في إقليم المنيا وضواحيها، ولكن الهواء يشعرك بالبرد ويضطرك إلى الدخول في ملابس ثقيلة.

أقبل فارسنا الضابط ومعه ثلاثة رجال هم شيخ الخفراء واثنان من العسكر من أهالي البلدة، أضفى زيه الرسمي على جسده الفارع ووجهه المشرق مهابة وجلالاً..

وقف الكاهن الشاب وصحبه من أفراد الشعب لاستقبال الضابط، حاكم القرية وسيدها بلا منازع، تبادل الجميع التحية والتهنئة بالعيد وجلس كل على كرسيه، الضابط بجوار الكاهن وحولهما أبناء الكنيسة، أما شيخ الخفراء والجنديان فقد ظلوا واقفين، انتباه..

دار الحديث عن عيد الميلاد وعن القيم الروحية التي ينبغي أن يحياها المسيحي أيام العيد، تجمع الفلاحون، رجالاً وشباباً وأطفالاً يتفرجون على أناقة الضابط، سعداء بهذا اللقاء، سأل الضابط الكاهن إن كان يشكو من أمر فأجابه الكاهن بالنفي، شاكراً اهتمامه، عرف الضابط أن الكاهن قد عقد العزم على دخول امتحان الثانوية العامة ليستكمل دراسته في الجامعة وأغتبط أشد الاغتباط من حماس وطموح الكاهن الشاب.

وبعد شرب القهوة وتناول بعض الحلويات، سأل الضابط الكاهن وقد قارب بينهما إحساسهما بالغربة عن القاهرة، وعن الأهل والأحباب وسأل في حياء شديد ورقة بالغة:

- لامؤخذة يا أبونا، لماذا تستخدمون النبيذ في الطقوس الدينية، أليس نوعاً من الخمور؟ سؤالي مجرد للعلم لا لسبب آخر.

لم يفاجئ صاحبنا الكاهن بالسؤال، لم يجد حرجاً ولم يخجل من الحوار، بل وجدها فرصة قد تصلح بعض المفاهيم الخاطئة عن المسيحية قال:

النبيذ في طقوسنا المسيحية أقرب إلى عصير العنب منه إلى الخمر، فهو غير مسكر ولا يذهب بالعقل ولا يجهز بالطرق التي تجهز بها الخمور، أنها مهنة يتقنها الرهبان اتقاناً جيداً، وعلى ذلك لا نعتبرها خمراً بل عصير كرم.

قال الضابط: ولكن سمعت أحياناً المرتل يقول: يتحول هذا الخمر إلى دمك المقدس؟

هذه عبارات طقسية موروثه ربما أدخلت في بداية انتشار اللغة العربية أي منذ القرن العاشر الميلادي ن وحتى لو اعتبرنا النبيذ بعضاً من الخمور، فأنه أقلها تخميراً ولا يدخلها أي نوع من أنواع الكحول التي تستخدم في صناعة الخمور، وكما تعرف سيادتكم أن الخمور أنواع ولها مفعول للسكر يتفاوت بين صنف وآخر...

قال الضابط: ولكن لماذا لا يستخدم عصير آخر، هل هذا بعض من العقيدة!؟

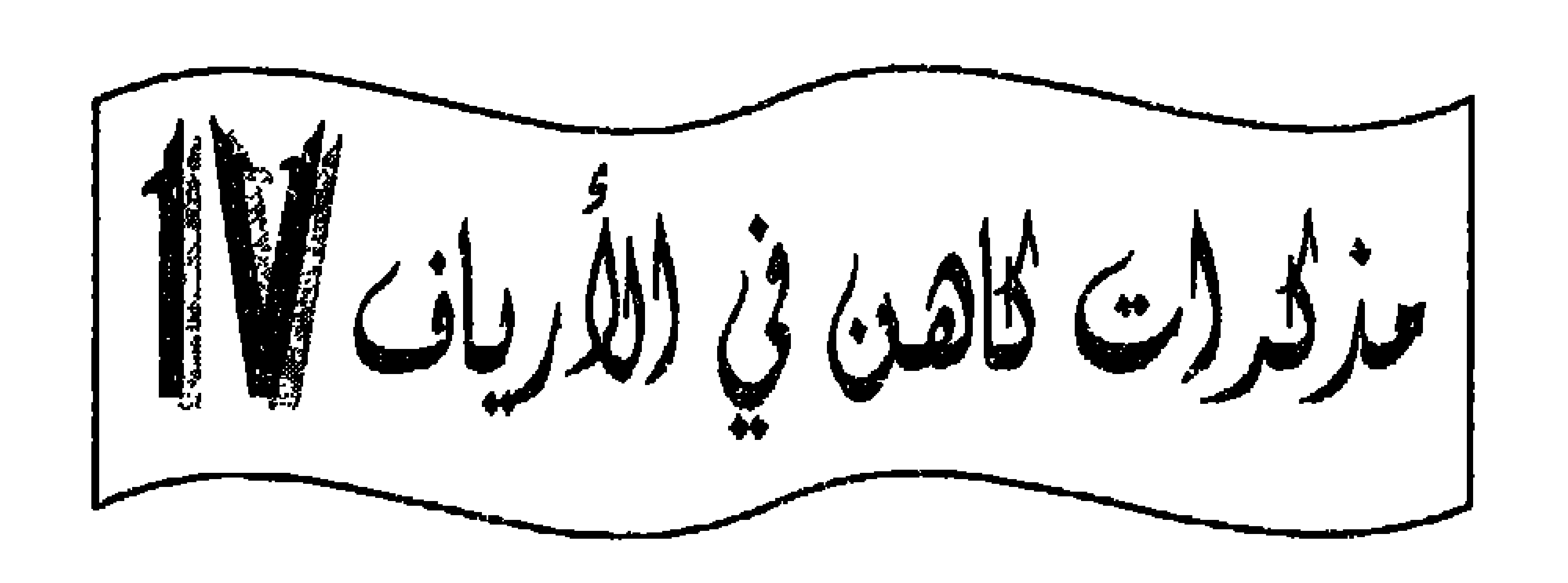
- بل هذا جوهر من جواهر التراث المسيحي والإيمان، فالعنب أو الكرم رمز واضح له دلالته في العهد القديم أنه يرمز إلى أبناء الإيمان، وإلى شعب الله المختار، وإلى الوحدة في التعدد، والانتماء إلى الأصل والجذور والمسيح له المجد حقق كل ما جاء في العهد القديم وأختار الكرم مثالاً لشخصه فهو يقول: أنا الكرمة وأنتم الأغصان، كل غصن لا يثبت فيّ لا يأتي بثمر، وشاء بحكمته أن يكون عصير الكرم بعضاً من العقيدة المسيحية فهو عندنا في القداس نتناول قليلاً جداً منه بعد صلاة التقديس وقد تحول بالإيمان إلى دم المسيح كما تحول الخبز بالإيمان إلى جسد المسيح، ولا يكاد المؤمن في تناوله يتذوق بعض نقاط، أنه الاتحاد بالمسيح والاتحاد بجميع المؤمنين، بل وفي

الطقس اللاتيني دون الطقوس الشرقية، الكاهن الذي يقيم القداس وحده يتناول عصير الكرم ويكتفي المؤمنون بتناول القربان فالأمر بعيد كل البعد عن فكرة الخمر والمسكر.

قال الضابط برقة شديدة: أنتم رجال الكهنوت المسيحي مقصرون في حق وطنكم وكنيستكم، أنتم لا تشرحون للناس القيم المسيحية الصحيحة، نحن- المسلمين لا نعرف الكثير عن حقائق المسيحية، وأنتم لا تعرفون الحقائق عن الإسلام فكيف يمكن التعايش في جهل وفى تخلف، أخشى أن يؤدى هذا الجهل المتبادل إلى أمر لا تحمد عقباه.

وكأن الضابط بحسه الوطني والأمني قد أدرك برؤية ثاقبة عواقب هذا الجهل وما يجره على الوطن من كوارث لطخت مسيرة السبعينات وزلزلت أمن الإنسان المصري، الإنسان المتحضر، الإنسان الذي علم الإنسانية معنى الوحدة في التعدد واحترام الآخر...

وتمضى الأيام وتنشأ علاقة ثقافية وثيقة بين صاحبنا الكاهن وضابط النقطة، ساعدتهما في أمور كثيرة وخففت عنهما ثقل الفراغ القاتل في القرية وتعلم صاحبنا أموراً كثيرة لعل أهمها أن رجل الشرطة، هو إنسان في حاجة دوماً إلى كلمة نابعة من القلب، وأنه في حاجة إلى رجل دين على قدر كبير من الثقافة والتسامح.



كانت معركة حقيقية، أطرافها الكاهن الشاب وفي صفه أحد أبناء الأسرة، طالب في كلية الآداب، دارت المعركة حول ختان الطفلة الصغيرة شقيقة الطالب، لم يتجاوز عمرها أربع سنوات صمم الوالد والوالدة على ختان الطفلة البريئة، وأيدهم في ذلك أغلب رجال ونساء العائلة، لجأ الطالب إلى الكاهن ليساعده على إيقاف هذا العمل المشين، ثار الطالب ثورة عارمة، سخر منه الجميع ، اتهموه بأنه قد نسى تقاليده وقيمه، وبأن حياته في القاهرة قد علمته اللا مبالاة والتسيب..

صحب الكاهن الطالب إلى المنزل، وقد تجمع أفراد الأسرة في شبه عرس صغير، جلس حلاق الصحة على حصير فرش على الأرض، وضع حقيبته أمامه، كان يدخن الجوزة بشراهة ويشرب الشاي في صوت بشع، وقف الجميع عند قدوم الكاهن، حياهم دون أن يمد يده ليقبلوها، أحضروا له كرسياً، أحاط به أهل البيت، سأل الكاهن حلاق الصحة: ماذا ستفعل؟ قهقه حلاق الصحة وأجاب في سخرية واضحة، هالعب طاولة يعنى هاعمل أيه يا قدس أبونا، هاقوم بشغل.

قال الكاهن: هذا عمل شرير فاسد (ولم يكن قد صدر قانون رسمي بمنعه في ذاك الزمان).

ليه بس يا أبونا تقطع عيشنا، إحنا بنسترزق منه.

الختان جريمة..

تدخل والد الطفلة: هدى شوية يا أبونا الكلام، دى تقاليد آبائنا وأجدادنا، البنت لازم لها ختان.

من قال هذا؟

رفع حلاق الصحة حاجبيه ونفر فاه لحظة ثم قال: عندكم في مصر ختان البنات شغال، في أمبابة وروض الفرج وبولاق بيقوموا بيه، أنا حضرت حفلات كثيرة لختان بنات العائلة، أيه اللي يزعلك يا أبونا.

وهنا أنتصب الطالب ووقف وقد أحمر وجهه ولمعت عيناه وأشتد غضبه وقال في عصبية حادة : حرام عليكم دى طفلة اللي بتعملوه ما يرضيش ربنا انتو بتقتلوها بالحيا، أختي لا يمكن أن تعمل لها هذه العملية.

صرخ فيه أبوه: أنا أبوها مش أنت، معندناش لا أولا ولا بنات من غير ختان، إذا كان العلم في مصر علمك الكلام دا تبقى خسارة فيك الفلوس.

أجاب الشاب بحيره: دا جهل وتخلف

فصاح حلاق الصحة محاولاً تهدئة الموقف: أنت نسيت يا أستاذ أنني أنا اللي عملت لك الختان وأنت طفل، دى عملية نظافة لا أكثر ولا أقل.

أجاب الشاب: دى جريمة.

أجاب حلاق الصحة: لا بقى، لا جريمة ولا حاجة، دى عفه وطهارة ودرع لصيانة البنت

عندئذ أشار الكاهن للجميع بالصمت وبالهدوء وقال في نبرات جادة: لا يا أسطى، العفة في العقل والقلب والضمير، لا دخل للعفة والفضيلة في أجزاء الجسم ، العفة في التربية وتنمية الأخلاق وخوف الله، اللي بتقوله دا غير صحيح إطلاقاً.

قال الحلاق: والمسيح يا أبونا أحنا أتعلمنا كده، وأتعودنا ُعلى كده ونـاس كتير بتقول دى عملية تصون عفة البنت وتبعد عنها حاجات كثيرة

قال الكاهن: غلط.. غلط يا أسطى، جسد الإنسـان لا ذنـب لـه فـي الخطيئة، ضمير الإنسان، عقله إرادته، أما الجسد فهو آلة مقدسة ليس إلا.

قال الحلاق في تهكم: أعطني آية من الكتاب تمنع ختان الولد أو البنـت. أعطني قانون كنسى يمنع هذا العمل، فإذا كـان الكتـاب المقـدس والكنيسـة المقدسة ليس عندها مانع فحضرتك بناء عليه بتحارب عادة مفيدة

وجم الكاهن لحظة، وادرك أن حلاق الصحة بخبرته قد سـيطر علـى عقول الناس وهو يدافع عن لقمة عيشه، وقال في حزم: جسد الإنسان هيكل لله هذا تعبير الكتاب ، فهل يوجد عيب في هيكل الله، الجسد الذي تطـهر بسـر العماد والتثبيت وبسر القربان هل فيه شئ فاسد أو بدون فائدة.

قال حلاق الصحة: طيب ليه بنقص الأظافر، وبنخلع الأسنان، ونقـص الشعر، ونشيل الزايدة الدودية ليه توافقوا على ختان الولد وترفضـوا ختـان البنت، ختان الأولاد مذكور في العهد القديم أما ختان البنات فيفهم أنه تابع لذلك فقد يكون الكتاب تعفف عن ذكره.

قال الكاهن: ما شاء الله، وكمان بتستشهد بالكتاب يا راجـل اتقـى الله، ختان العهد القديم كان رمزا وعهدا وعلامة بين الله وبين شعبه ، كانت له غاية محدودة انتهت بالتجسد الإلهي، وختان الذكور في البلاد الحـارة لـه فوائـد صحية، واغلب بلدان العالم المتمدين لا تقره، أما ختان البنات فهو جريمة ضد كرامتهن وامتهان لمعنى الأمومة والأنوثة واعتداء صارخ على قيمة الجسد.

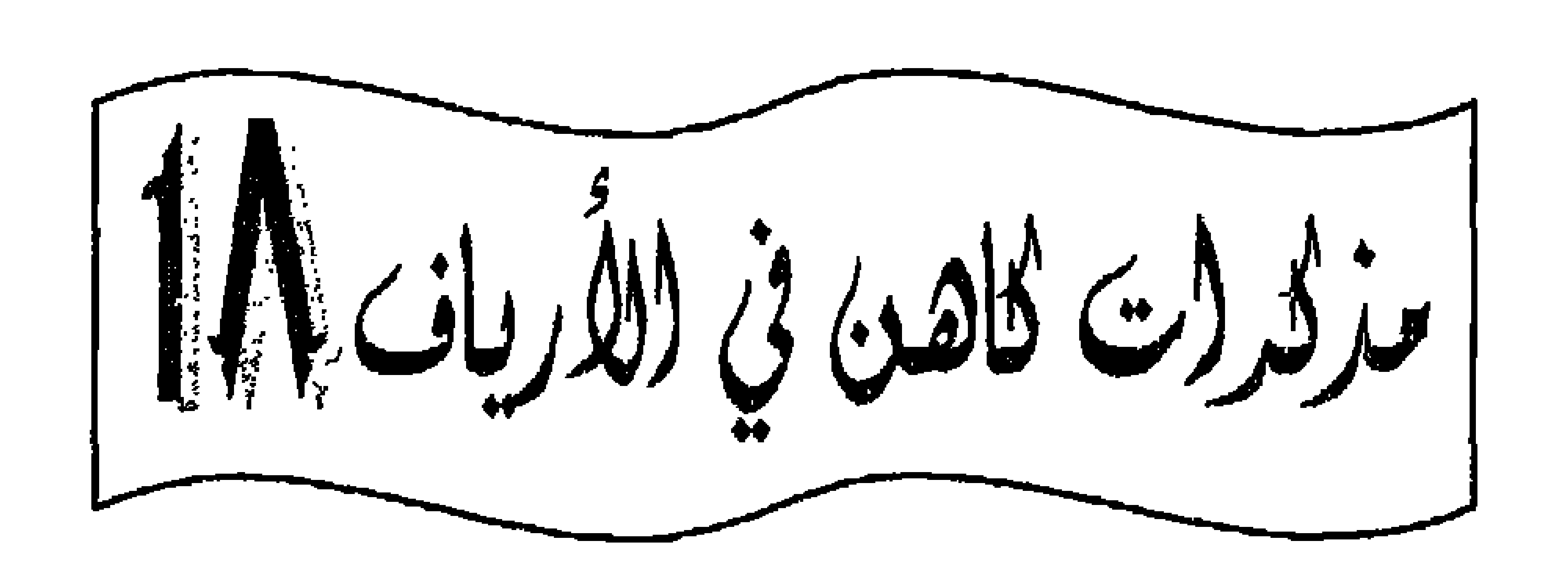
استشاط الشاب غضبا وقال: خذ شنطتك وتكل على الله ، مفيش ختـان لأي بنت في القرية بعد اليوم، وأنا سأتصل بكل المسؤولين لوضع حـد لـهذه الجريمة النكراء.

قال أحد الفلاحين المستمعين للحوار: يعنى أيه نكراء،

. فزغده فلاح آخر يقف بجانبه: اسكت أنت، أش فهمك نكراء يعنى الدين ينكرها.

وقف والد الفتاه وقال بكل هدوء: لامؤخذة يا قدس أبونا المقام مش مقامك، والموضوع باين عليه هيتطور أتفضل حضرتك واحنا متشكرين على النصيحة، غلطة أبني المتعلم اللي تعبك وجابك هنا في موضوع فاضي ما يستهلش زيارتك دى.

خرج الكاهن الشاب، يشعر بخيبة أمل، وبمرارة الهزيمة ولكنه تعلم أن الحياة لا تقوم على النظريات والعلوم وإنما الإنسان هو القضية والإنسان هو الحل وللحقيقة والتاريخ فقد ماتت الطفلة اثر نزف دم لم ينقطع.



"أكيلا" هي اليوم في السبعين من عمرها، أسمها من رسائل القديس بولس، تزوجت ابن عمها لم تبلغ العشرين ربيعاً، دعك من وصف الجمال الجسدي، فقد أنهكه الزمن وأرهقته الهموم، وبخاصة أن حدة الذكاء، وسرعة البديهة، وحسن المنطق، ورقة الشعور تضفي على الإنسان، جمالاً لا يذبل، وجاذبية لا ينطفئ بريقها.

هذه المرأة أعتبرها نموذجاً للمرأة المسيحية، بل هي امرأة قبطية الصورة الحية للأم وللزوج وللجدة التي سكبت حياتها النقية لتسقى أولادها الفضيلة والحكمة.

فلاحة لا تقرأ ولا تكتب، تزوجت وعاشت مع زوجها في بيت عمها، خلال السنوات الطوال لم يسمع أحد أنها تشاجرت مع حماتها، كانت تدعوها أمي كعادة الصعيد وتدعو حماها وهو همها "ابوى" وكأنها حققت وصية الكتاب، تركت شعبها وبيت أبيها، لتحيا مع عائلة عمها، لم يسمع قط أنها اختلفت مع زوجها مرة واحدة، أي سر عظيم هذا الذي ندعوه سر الزواج، ما بال العالم يتمرد عليه، ما بال حضارة العصر تحطم السر الأعظم، في حضارة الغرب، العلم والتكنولوجيا، السياحة والانطلاق بلا حدود، البحث عن المتعة العابرة، السعي إلى حياة بلا قيم روحية، نقرأ أن نسبة الطلاق بعد الزواج وصلت إلى حال من الجنون، في فرنسا ثلث الزيجات لا تعمر عشر سنوات، في إنجلترا نصف الزيجات لا تعبر هذه السنوات العشر، في أمريكا، في

السويد، أنتشر الزواج الذي يدعى باطلاً الزواج الحر، أي بلا أوراق أو شهود أو تسجيل، إلى أين تمضي بنا حضارة المتعة؟ وإلى أين تمضي مسيرة الأسرة وإلى أين يمضى السر الأعظم، سر الزواج؟ أين الخطأ وأين الصواب؟ هل الخطأ في التقدم العلمي بجانبه السلبي الذي أقنع الإنسان بأن الحياة مجرد محطات للمتعة، وفرص لاقتناص اللذات؟ هل الخطأ في غياب التربية الدينية، وضعف رسالة رجال الدين؟ هل هذا ثمن الحضارة المادية الكاسحة التي غمرت العالم بعد الحرب العالمية الثانية التي شرخت الفكر الإنساني ودمرت فيه الرجاء في إصلاح هذا العالم؟

الأسرة في حاجة إلى عون، إلى جهاد متصل لا يكل في القرية والمدينة والعواصم الكبرى، إن الغرب يدخل القرن الجديد والألفية الثالثة وسكانه تتناقص في صورة مرعبة فقد أصبح الإنجاب تضحية لا تتقبلها الأزواج المعاصرون كما أضحت تربية طفل أو طفلين أو ثلاثة مرهقة ولكن، هل وجدت الحل تلك البلدان التي تمردت على الزواج الديني ونبذت أخلاقيات الأسرة المسيحية؟ ولا نظن أن عالمنا العربي بعيد عن المأساة أو بعيد عن الكارثة فقد حاقت به مصائب الدعوة إلى الزواج دون التزام، فأنتشر الحرام فيما يدعى بالزواج العرفي، واتسعت دائرة العلاقات بين الرجل والمرأة في غير وازع من ضمير وفى غير وعى روحي وإلهي.

واضع هذا النموذج الحي، لأسرة مسيحية، عركت الحياة في حلاوتها وفى مرارتها، ومضت تحمل الإيمان درعاً، والرجاء المسيحي زاداً، والمحبة الإلهية للإنسان طاقة خلاقة لا تنفذ.. نعود إلى أكيلا.

فلاحة قبطية، أنجبت ولدين، كرست حياتها لأسرتها، عاشت شمعة تتوهج بالفضيلة، وحب عمل الخير، تقضى صباحها في أعمال البيت، في الاهتمام بالجاموسة، والطيور التي تسعى في الدار، بتربية النحل، الولدان يذهبان إلى

المدرسة، لقد صممت بإرادة لا تلين أن يصل ولداها إلى الجامعة، وفرت لهم كل سبل الراحة المادية وسبل الراحة النفسية، وما أدراك معنى هذه الراحة النفسية، أنها نبع الحنان الذي يتدفق في أرجاء البيت، فيشعر كل عضو فيه بالحب والترابط، فتقتل الأنانية ويطرد الخوف والقلق، أنها تقوى الأم القبطية، تعلم الأولاد أهمية الصلاة في حياتهم، ضرورة الاشتراك في القداس وسر القربان، تعلمت كيف تصلي السبحة، وكيف تواظب على حضور اجتماع السيدات.

تذهب إلى الحقل تحمل الطعام لزوجها وعمها، تزور أحيانا الأقرباء المرضى، لا تنهر فقيرا أو محتاجا وإنما تعطي ولو مالا قليلا؛

ومضت حياة أكيلا أشبه ما يكون بحياة القديسات اللواتي نقرأ عنها حواديت الماضي البعيد، وكأنهن أساطير بالنسبة لعصرنا.

وهل يترك الزمن القديسين والقديسات بلا محن أو تجارب أو آلام؟ فالذي يحبه الرب يجربه، والذي يتألم يتعلم، وسر الفداء لابد أن يتصل بعطاء المخلصين الأتقياء.

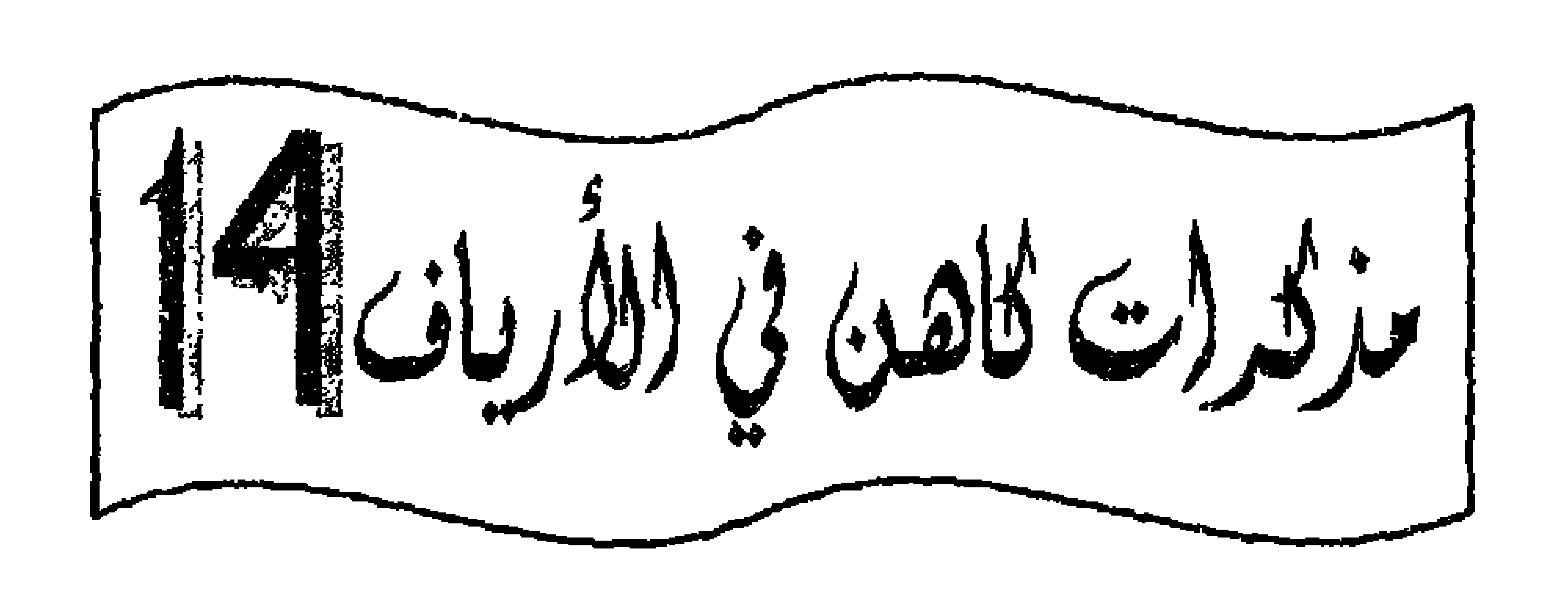
زوجها، أبن عمها، الشاب الصالح، الإنسان المسالم الهادئ يصيبه المرض الخبيث وهو في عنفوان شبابه لم يبلغ الأربعين من عمره، سرطان المعدة، يقضي عليه في شهور قليلة، يصمت الأب المكلوم، تبكي بحرقة الأم الثكلى، يتيتم الطفلان في صباهما، وتقف الزوجة الشابة كالعملاق الشامخ، كجبل راسخ، تسند البيت من الانهيار، تقوم بما كان يقوم به زوجها، يستمر الولدان في المدرسة يدخلان الجامعة، بيت أكيلا بداخله حزن قاتل، دموع تسكب بغزارة، صمت رهيب، وفي خارجه تمضي الحياة، وتملأ المرأة الصالحة الفراغ الذي تركه زوجها، لا يشعر عمها أو زوج عمها بما يدور في أعماقها، والجميع يرونها في صلاة، في ثبات، في قوة...

صاحبنا الكاهن وحده، كان يعرف سر هذه المرأة التقية، كانت تستمد قوتها من سر القربان، كانت تسرق الدقائق بين الحين والحين لتسجد للسر الإلهي، يفتح لها الكنيسة الشماس صموئيل يتركها بين يدي سجين القربان، يسمع شهيقها، صوتها يتردد في جنبات الكنيسة، تظل وقتاً ثم تجفف دموعها وتمضي إلى حال سبيلها...

أرادت أن تزرع فرحة في أسرتها، أقامت عرساً لأبنها البكر الذي أنهى دراسته الجامعية، وفضل أن يبقى بجوار جده، أنجب طفلين كأبيه، مسحت الفرحة دموع الألم من قلب هذه الأسرة، تسربت من جديد بهجة غابت طويلاً، ملأ الحفيدان قلبي الجدة الصغيرة والجدة الكبيرة بالأمل والسعادة، أما الجد الأكبر فلم ينسى بكره ومعينه، أختلط في قلبه الفرح بالألم، الابتسامة بالشهقة الكبيرة..

مرة أخرى تصاب الأم المؤمنة في أعز أمانيها، يمزق قلبها تطوف به الأحزان، أبنها البكر، خليفة أبيه، الابن الجامعي، الولد الحبيب، مصاب بمرض أبيه، المرض الخبيث، يرحل في شهور؛

يا إلهي!! أي قوة إلهية تحتاجها هذه الأسرة هل تحولت المرأة عن إيمانها؟ هل ضعف رجاؤها. أبداً.. أبداً.. ظلت شامخة، صامتة، مؤمنة لكن كست الأحزان وجهها بالشحوب، وسرت الشيخوخة إلى جسدها، وظل بريق التقوى في عينيها، وهى في السبعين من عمرها.



لو تجسد الفقر رجلاً لكان عم "مغاريوس" ولو تأمل إنسان مسيرة حياتـــه لأدرك سر بقاء القبطي محافظاً على إيمانه في دروب التاريخ وقد ازدحمـــت بالألم والمعاناة.

كانت عشة مغاريوس في مواجهة الكنيسة لا يفصل بينـــهما إلا طريـــق طيني ضيق لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار، العشة كلها من الطين، جدرانـــها الأربعة وعفواً إن أطلقت عليها الجدران، ليس بها إلا فتحة ضيقة تركها عـــم مغاريوس ليدخل منها الهواء، تتسلل إشاعة الشمس إلى داخل العشة أما هـــو فيقول تركت هذه النافذة الصغيرة في مواجهة الكنيسة ليظل صليبها المرســوم أعلى بوابتها أمام عيني ليل نهار...

ليس في العشة شئ يذكر، بلاص من الجبن القديم، قلة ماء، وبلاص فيـــه عسل النحل الذي يتسوله من جيرانه القادرين، حصير فـــرش علـــى الأرض، بقايا ملايات وبطاطين قديمة، حبل يمتد من الحائط إلى الحائط الأخـــر يلقـــى عليه "هلاهيله" حين يشعر أن الحاجة ملحة للاستحمام بعد طول صبر وتحمـــل يمضي إلى الترعة المجاورة، ويغسل ما عليه من بقايا الملابس في الترعـــة، يحتفظ دوماً بصابونه كبيرة يهديها له أبو عيسى البقال الموسر، والـــذي كـــان يمده ببعض المال نظير خدمات متنوعة، نقل البضائع من مكـــان لمكـــان، أو إنزالها من سيارة النقل إلى داخل المحل، وأحياناً يتركه لحراسة الدكان حيـــن يضطره أمر إلى مغادرته وأولاده كلهم في المدارس، وعم مغاريوس راضـــي

بما قسم له، لا يؤذى أحداً لا يخاصم أحداً، لا يدخل الكنيسة بل يظل واقفاً يتسول على بابها، وقت التناول يسرع إلى الوقوف في الصفوف، يصوم الأصوام كلها ربما يكون مرغماً فما يتسوله أيام الصوم هو من طعام الصائمين، يعلق على باب عشته صورة كبيرة للراعي الصالح وأغلب الظن أنه حصل عليها من الراهبات، يعتز بها اعتزازاً واضحاً، يغضب أشد الغضب حين يعاكسه صبيان القرية ويكتبون على الصورة عبارات تضايقه، يردد دوماً المسيح لم يكن أغنى منى، بل ربما كان فقيراً مثلى، فهو راعى، أنا أحب المسيح لأنه فقير ويحب الفقراء.

عم مغاريوس له جسد قوى متوسط الطول عريض المنكبين، أشعث الشعر كثيفة، تقص القرية عنه القصص الكثيرة، بعضهم يقول أنه كان أبن ناس أغنياء يمتلكون الاقطاعات ولكنهم فقدوها أيام الترك والمماليك، بعض يقول أن والده قتل بسبب نزاع مع العصابات التي كانت تبتز الفلاحين ويطلق عليهم قطاع الطرق لهم زعيم يقال عنه الخط، قتلته شجاعته وقضت عليه عزة نفسه، فتربى مغاريوس يتيماً شريداً، لم يدخل مدرسة ولم يتزوج، ولم يكن له بطاقة شخصية، فريق آخر من أهل القرية يقول أنه غريب وفد إلى بردنوها في العشرينات لا نعرف له حسباً ولا نسباً، أنه بدون هوية، وبدون أصل، أنه نبات شيطاني..

على كل حال، قامت صداقة بين عم مغاريوس وبين صاحبنا الكاهن الشاب، كرم الكاهن وعطاياه أسرت قلب ووجدان الرجل الذي تعدى الخمسين من عمره، أحب الكاهن كأبن له، كان له حارساً دون أن يطلب منه ذلك، وظل خادماً دون راتب شهري، يلتقط رزقه مما يجود به الكاهن وما يفيض من أهل القرية.

دارت أسئلة كثيرة في خاطر صاحبنا الكاهن الشاب، وهو يشاهد عم مغاريوس إنساناً ليس له أي اهتمامات أو طموحات يدب على الأرض كائناً

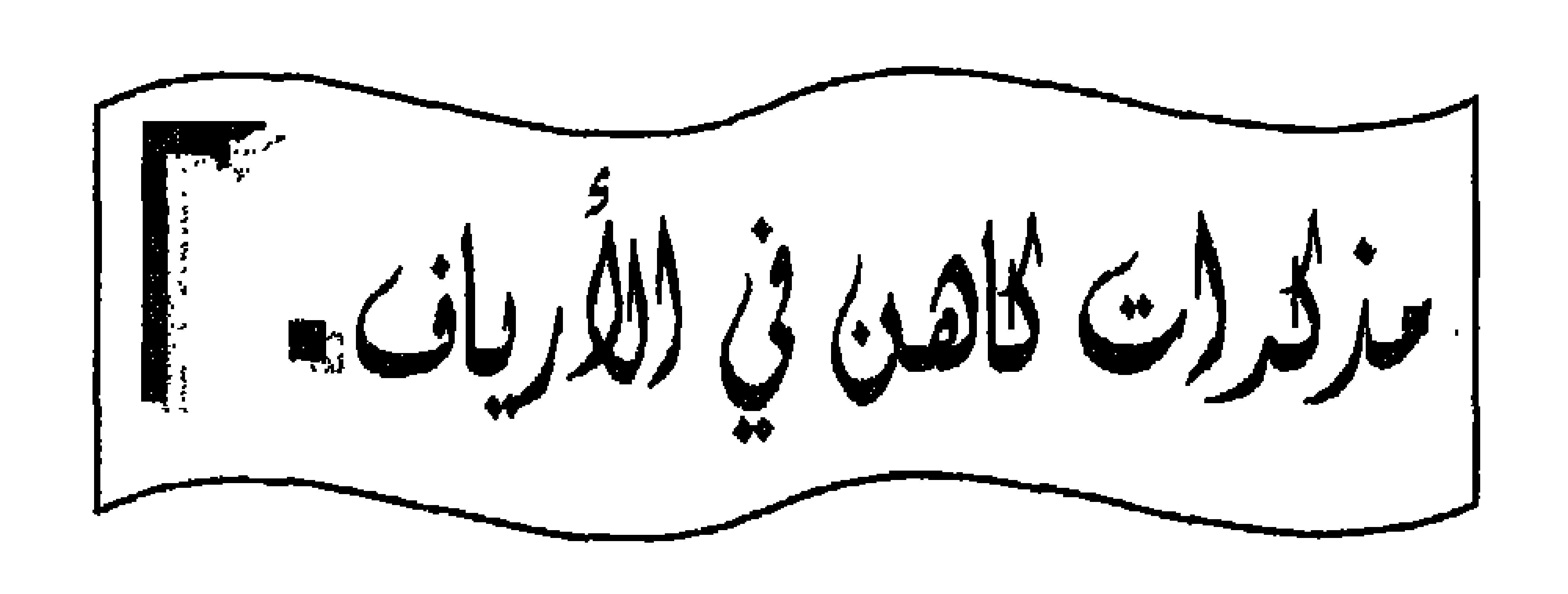
باحثاً عن رزقه اليومي، عن قوت يسد به صراخ الجوع والعطش، كأنه خارج نطاق الكرة الأرضية، لا تهمه السياسة، لا يشغله أمر الثورة الناصرية، لا يعرف عن الكنيسة وقضاياها، العالم بالنسبة له عشته يلقى بجسده على حصيرتها، ومعدته يحاول أن يملأها، أي نوع من البشر هذا الإنسان؟ وهل يوجد أمثاله بالملايين وكيف سيحاسبهم الله؟ أكذب لو قلت أن عم مغاريوس كان تعيساً أو حاسداً أو حقوداً أو غضوباً ، لم يكن فيه من ذلك كله شئ ، بل على العكس ، يبدو سعيداً راضياً يضاحك كل من يقابله، وكل من يسخر من فقره، بل كان صاحبنا الكاهن يعجب حين يسمعه أطراف الليل يغني بصوت أجش: يا ليل يا عين، على بلد المحبوب وديني، وأيام الصوم الأربعيني يظل يردد: الصوم الصوم للنفس ثبات طوبى لمن صام عن الزلات، لم يكن متعصباً لمذهب، أو لكنيسة، فهو يتسول على باب كنيسة الكاثوليك والكنيسة الأرثوذكسية، بل وأحياناً في المواسم الكبرى يتسول على باب الجامع، يعرفه المسيحيون والمسلمون، يذهب إلى الموالد الكبرى ويرجع بحصيلة لا بأس بها من المال أو من المواد الغذائية...

حاول صاحبنا الكاهن الشاب ذات يوم أن يعرف سره، أصله، حكايته، لم يبح له عم مغاريوس إلا بالقليل من تاريخه عرف أنه ولد في سنة ١٩٠٥، السنة التي مات فيها الزعيم مصطفى كامل، وأن أجداده كانوا من أغنياء القرية التي تدعى العزية نواحي أسيوط وهى لا تزال قرية مسيحية، وحكى أن الأتراك ثم المماليك استولوا على أراضيهم، قتلوا بعض أهله، وتشرد البعض الأخر ثم آلت هذه الأراضي إلى أحد الباشوات حتى أستولي عليها الإصلاح الزراعي بعد ثورة ١٩٥٢، تصدت عائلته للمماليك فأبادوهم عن أخرهم، وهرب وهو صبى، ثم تشرد حتى أستقر في بردنوها، لا يملك إلا عافيته يخفى أسراراً كثيرة عن قريته الأصلية، لا يحب الكلام عن الماضي.

ظل صاحبنا الكاهن على علاقة طيبة مع عم مغاريوس، الكاهن يمد له المساعدة بين الحين والحين وهو يؤدى للكاهن خدمات متعددة، لم يره الكاهن باكياً إلا مرة واحدة، حين حمل متاع الكاهن إلى الأتوبيس ليغادر بردنوها وبودع خدمته فيها قال له عم مغاريوس والدموع في عينيه: مع ألف سلامه. ابق صلِ من أجلى وعلى فكرة يا قدس أبونا أنا هفضل اصلي علشانك...

ومضت الأيام.

وبعد سنوات طويلة عاد صاحبنا الكاهن ليزور بردنوها، وعرف أن عم مغاريوس قد ودع دنيانا ولم يبكه أحد، وشاهد العشة وقد ضمها أحد أغنياء البلد إلى حوش بهائمه ورأى حماره راقداً في عشة عم مغاريوس.. وبقايا صورة الراعي الصالح على بابها.



في القرية نوعان من الخفراء، خفراء الحكومة وخفراء الزراعـــة، أمـــا خفراء الحكومة فهم موظفون رسميون في وزارة الداخلية، أغلبهم أميـــون لا يقرأون ولا يكتبون، يختارون من ذوى الأجساد القوية، ومن أهل القرية، لـــهم زي خاص، طربوش طويل يشبه القرطاس في منتصفه شارة سوداء تقسمه إلى قسمين وهو بدون أزرار "وبلطو" طويل كاكى يصل إلى ما عند القدميـــن لـــه جيوب كبيرة تسع أشياء كثيرة، يسلم الخفير بندقية طويلة جداً أطول من مـــتر لها فتحة أو فتحتان، ويحمل ذخيرة في كيس بضع رصاصات أغلب الظن أنها من أسلحة الحرب العالمية الأولى أو ربما قبل ذلك، والخفير الغلبان لا يحق له استعمالها إلا بشروط قاسية جداً وفى ظروف خطيرة، مطـــاردة لـــص مثـــلاً فيطلق رصاصة في الهواء للتخويف، أو لفك خناقة في السوق ويحاسب حساباً عسيراً على استخدام البندقية، فهي للتهويش أكثر منها للاســـتعمال الحقيقـــي، راتب خفير الحكومة في ذلك الوقت لم يكن أكثر من الجنيه والنصف جنيه فـــي الشهر، لا يعتمد على الراتب في حياته، وإنما يعمل فلاحاً حينـــاً أو صـــاحب مهنة أو يسترزق مما يجود به الفلاحون حين تلم بهم أزمة يلجأون فيها للخفير، كما يناله بعض من خيرات الأسواق التي تقام كل أسبوع على أطراف القريـــة، كان خفير الحكومة متميزاً بشارب ضخم تحت أنفه، وبحدة في الطبع وبخشونة في الكلمة والحركة، له سطوة ونفوذ في القرية ويخشاه الفقراء، وشيخ الخفراء يكتب ويقرأ وشارة طربوشه لونها أخضر قد يحمل كالخفراء بندقية يعلقها على

كتفه وقد لا يحملها استعلاء وإفراطا في الثقة وتميزاً عن الخفـراء البسـطاء، وراتبه قد يصل إلى أربعة جنيهات في الشهر (أغلب الظن أن تلك الأمور قـد تبدلت كثيراً في القرية، ولكنها الذكريات التي تنسج مسيرة الحياة).

خفراء الزراعة لهم شأن آخر، أنهم موظفون عند أصحـاب الأراضـي الزراعية، لكنهم معتمدون من الحكومة، ليس لهم زي، ليس لـهم راتـب، لا يحملون بنادق معلقة على أكتافهم وإنما بعد ترخيصها يضعونها تحت وسـادتهم أثناء النوم، يندر أن يستخدم خفير الزراعة بندقيته لأنه يشترى رصاصها مـن حسابه الخاص، يحصل على أجره من ثمار الأرض فله نسـبة ضئيلـة فـي المحاصيل الزراعية مثل القمح والذرة والفول، أغلب خفـراء الزراعـة مـن الشباب الذي لا يملك أرضاً أو مالاً أو علماً، وإنما يمتلك عافية وقوة ، يلجـأ إليه أصحاب الأراضي ليحرسها إناء الليـل وأطـراف النـهار، فلصـوص المحاصيل الثمينة يفدون من كل صوب من القرى المجاورة أو النائية.

يعمل خفير الزراعة في المهن المتنوعة، فقد يفتح دكاناً للأحذية أو يمكـن أن يكون حلاقاً، كما يستغل مهنة الخفر لكي يربى بعض الماشية فـي الحقـل الذي يحرسه.

شماس الكنيسة الذي عمل مع صاحبنـا الكـاهن الشـاب كـان يدعـى "صموئيل" أمي، قوى البنية، شديد الذكاء، ولكن ما شد انتباه الكاهن في هـذه الشخصية، تقوى صموئيل ونقاء سريرته، وحبه للصلاة وعطفه على الفقـراء، وفي زيارة للقدس وجد صاحبنا الكاهن أمام بيت إبراهيم، وهو البيـت الـذي شيده البابا بولس السادس لاستقبال الحجاج مجاناً وجد على مدخل البيت يافتـه كبيرة لا تزال حتى اليوم عليها عبارة البابا بولس السادس: إن الفقراء هم الذين يساعدون الفقراء، ما أصدق هذه العبارة على صموئيـل، الشـماس، الخفـير الزراعي، الذي لا يملك من حطام الدنيا إلا الرضا والقناعة، مكتفياً بالقليل فـي

كل شئ، يصوم الأصوام كلها بلا تردد وفى تقوى غامرة ونشوة روحية؛ يهتم بشؤون كنيسة القرية كأنها بيته الخاص، شاب فقير جدا، أعزب، تتمناه كل فتيات القرية، لجمال ملامحه، وجمال روحه، وصفاء ضميره، عرفه أهل القرية بأنه راهب بدون رهبنه، رآه صاحبنا الكاهن مرات كثيرة قائما للصلاة في الفجر، يرتل ما حفظه في صباه، يردد آيات كثيرة، على ضوء شمعة صغيرة، كان يقضى أغلب لياليه في صحن الكنيسة كأنه في محراب التعبد، يفترش حصيرا على الأرض، يضع بندقيته تحت الوسادة، لم يكن ينال قسطا كبيرا من النوم، يخرج بعد منتصف الليل لحراسة الأراضي الزراعية التي كلف بها، يعود للصلاة، يبكى كثيرا أثناء الصلاة، ماتت أمه بعد ولادته مباشرة، رباه أخوه الأكبر، كل ما يكسبه صموئيل لأبناء شقيقه الذين فقدوا أمهم، ويعيشون في حجرة واحدة عيشة بؤس وضنك.

ذات يوم، قبل الظهر بقليل، أقبل صموئيل إلى صاحبنا الكاهن ولم يكن يطرق الباب فمعه مفتاح بوابة الكنيسة، نادى من صحن الكنيسة، يا قدس أبونا...

أطل الكاهن بعد أن فتح باب حجرته، أمال رأسه إلى أسفل وقال: خير يا شماس صموئيل.

قال صموئيل: ماعندكش غدا النهاردة... عندي ضيف من قرية أبوان المجاورة، يمر بأزمة

قال الكاهن في تلقائية: آسف، ما كنتش مستعد.

قال صموئيل: شكرا يا قدس أبونا، بعد أذنك الضيف هينتظرنى شويه هنا..

جلس الضيف على كرسي عتيق في صحن الكنيسة أمام البوابة، خرج صموئيل وغاب برهة...

عاد الكاهن إلى حجرته، لكن ضميره بدأ في محاكمته في قسوة، كيف تقول لا... ماعنديش غدا، والأكل كتير، وأحياناً تلقيه في الزبالة، هل تعود الكاهن على الأخذ لا العطاء، هل صدق الناس بقولهم عن الكهنة أنهم "أبهات" أباء هات لا أباء "خذ" كيف سولت له نفسه أن يكون فظاً قاسياً بخيلاً وشماسه يضحي بحياته، وبماله القليل من أجله، فكر صاحبنا الكاهن طويلاً، تعذبت نفسه، لكن صوتاً من داخله قال له: لا ينبغي أن نعودهم على التبسط وعدم الكلفة، لا ينبغي أن تاخد رجلهم على بيت الكاهن، هيطمعوا فيه...

لكن ضميره ظل جلاداً لا يرحم وهو يقول له: هل هكذا ما تعلمته؟ هل هذه هي المحبة؟ الأكل عندك زائد والخير كتير، وتبخل على ضيف شماسك.. وهم الكاهن ينادى على الضيف لكي يصعد إلى حجرته، لولا صوت صموئيل قد عاد يحمل معه طعاماً.

يا قدس أبونا أحضرت طعاماً لك ولنا، الجماعة في البيت- يقصد- أولاد أخيه اليتامى، الفقراء، أعدوا لنا بيض بسمنة بلدي وجبنه قريش وشويه سلطة.. عملت حسابك علشان ماعندكش غدا، يا أبونا تنزل ولا نطلع إحنا.

عرق الكاهن، وطفرت دموعه من عينيه، وغالب حاله وقال في صوت منكسر: تعالوا أنتو علشان نشرب الشاي بعد الغدا، لم ينس صاحبنا هذا الدرس، وأصارح القارئ، أن أربعين سنة مضت لم تمح الخجل وتأنيب الضمير لازال الشماس صموئيل في القلب بكل ما كان يملك من الفضائل لا المال، رحمه الله رحمة واسعة بعد أن مات بسكتة قلبية ولم يصل إلى الأربعين من عمره.

مذكرات كاهن في الأرياف ٢١

لم تمح صورة هؤلاء الشباب من ذاكرة صاحبنا بالرغم من مرور عقود طويلة من الزمن حفروا في قلبه ذكرى، وفي عقله درساً وعبرة، كانوا ثلاثة يكبرون الكاهن، عبروا الثلاثين من العمر بقليل، عازر وشاكر وقسطور، نموذج للشباب المصري الأصيل في وجوههم السمراء بغير إسراف أقرب إلى لون القمح وملامحهم الفرعونية الدقيقة وقامتهم الممشوقة كجذع النخل، أما خفة دمهم وحبهم للعبث واللهو فحدث عن ذلك ولا حرج، فهم دوماً ثلاثي لا يفترقون في تجارة ولا حين الذهاب إلى البندر لدخول السينما والتسكع على المقاهي، ولا يدخلون الكنيسة إلا في المناسبات الهامة، يصومون أيام الأربعين في معاناة شديدة ولا يتخلفون قط عن صوم العذراء في شهر مسرى، يهربون من الصلاة الطويلة لم يتقدم واحد منهم خطوة بعد الابتدائية، مارسوا مع عائلاتهم تجارة النحل وتوريد عسله إلى مدن كثيرة تزوجوا مبكراً قبل العشرين من العمر وأنجب كل منهم أربعة من الأبناء والبنات، أطلق عليهم الفلاحون في القرية "أولاد الحظ" وأحياناً يقال عنهم "جماعة الكيف" فالمال كثير بين أيديهم يسعفهم في اقتناصه ذكاء حاد، ولسان معسول ولباقة في الحديث نادرة، يبدون دوماً متأنقين في نظافة يحسدون عليها يختارون الجلابية من قماش كثير الثمن، يحمل كل منهم وراء ظهره بندقيته المرخصة يسهرون الليل في شرب العرقي ولا بأس من بعض الكونياك المصنوع محلياً ويدخنون كل أنواع التبغ عازر لا تفارقه الجوزة أينما جلس وشاكر يدخن سجاير معدن كوتاريللي أما قسطور فله هواية لف السجائر ولا مانع حيناً من تدخين بعض المحرمات وما أوسع انتشار هذه المحرمات القاتلة في الريف وقد يتباهى بذلك بعض الأثرياء يظنون باطلاً أنها تمدهم بطاقة جنسية.

كان الكاهن الشاب جالساً ذات يوم أمام بوابة الكنيسة يقرأ مجلة من تلك المجلات التي تصله على فترات متباعدة، وفوجئ وهو جالس بالفرسان الثلاثة قادمين نحوه، يتضاحكون ويتغامزون، وحيوا الكاهن أحسن تحية، فوقف يعانقهم فقد كانت المودة والاحترام سبيلاً إلى قلوب الفلاحين، قالوا له نحن نريد أن نناقشك في موضوع ديني، فهل تسمح بذلك، أبتسم صاحبنا ورحب بهم، افترشوا حصيراً يحفظ دوماً لمثل هذه اللقاءات بجوار بوابة الكنيسة، وتربع كل منهم ووضع بندقيته على حجره.. وجلس الكاهن على كرسيه في مواجهتهم، ولم تمض دقائق حتى تجمع حول الجالسين فلاحون وفلاحات، ليستمعوا إلى حوار "العصابة" مع الراعي الشاب، والحوار في الأمور الدينية لا ينقطع بين أهل القرية، يكاد الموت يغلب على فكرهم وتكاد الآخرة تسحقهم، بادره عازر وقال إحنا لسنا مثقفين قوي بس بنقرأ الجريدة كل يوم يعني ممكن تسمينا أنصاف مثقفين أو ربع مثقفين لكننا نفهم في الدين فقد كنا تلاميذ مدارس الأحد- ولا يمكن أن ننكر أن هذه المدارس تضع أساس الفكر الديني في الطفل القبطي بل لعلها هي التي تزرع في أعماقه جذور عقيدته- نحن لسنا أتقياء ولا نمارس فرائض الدين بدقة ونرتكب بعض المعاصي، ولكننا مخلصون في تجارتنا لا نغش، ولا نسرق، ونساعد الأرامل والفقراء ونحب كل الناس، فهل نذهب إلى النار أم إلى ملكوت الله؟ سؤال قريب جداً من سؤال الشاب الغني للمسيح كيف أرث الملكوت؟ وأضاف قسطور ولعله كان أقواهم بنيه وأكثرهم نشاط وحيوية هل الله المحب، يلقي بأبنائه في جهنم الأبدية هل هذا معقول أم أن جهنم مرحلة مؤقتة وليست أبدية، عقلي لا يطاوعني في قبول فكرة أبدية العذاب الجهنمي.

ورفع شاكر يده وقد تدلت سلسلة ذهبية لساعة يضعها في جيبه ويشبك طرفها في صدره وتساءل هل خلق الله الإنسان ليكون حزيناً تعيساً يرى الجمال ولا يستمتع به؟ هل الأتقياء هم المحرومون من التمتع بالحياة الدنيا ولا يستمتعون بها، وحول لهم أطايبها ويحرمون أنفسهم، هل التقوى هي التجهم والحزن ودموع تجري بالتوبة، وهل الدين قيود وسلاسل؟ لقد زرنا الأديرة،

وقابلنا رجال الدين ما بالهم دوماً في كآبه وانطواء وكأنهم يحملون وزر العالم كله، أليس المسيح قد حمل عنا خطايانا؟.

تلك كانت القضايا التي تشغلهم وتقلق بالهم وتوقظ ضمائرهم بين الحين والحين، والحق يقال، لقد سعد صاحبنا الكاهن بهذه الباقة من الأفكار وإن لم يكن قد أستعد لهذا الموقف إلا أنها فرصة لكي يدخل إلى أعماق هؤلاء الشباب وقد تعلم أن الإيمان جمرة لا تنطفئ في ضمير كل مؤمن وإن احتاجت إلى ما يجعلها تتوهج وتسطع.. قال الكاهن، لننظم حوارنا وحديثنا ونقول أن نقاطاً ثلاث قد ذكرت في أسئلتكم الله المحب والعذاب الأبدي، المسيح كفارة عنا، متع الحياة والتقوى، وقد يمكن أن تتضح بعد ذلك صورة من يدخل إلى ملكوت الله.

أعترض عازر قائلاً: هل ملكوت الله فيه عمل ونشاط وحياة أم فيه حفلات وفرح ما هي صورة هذا الملكوت؟

قال الكاهن: من خلال المناقشة قد نجد وصفاً للملكوت وبالنظر إلى فكرة تعارض محبة الله وعذاب جهنم إلى الأبد فلقد درسه لاهوتيون وفلاسفة كثيرون وكتب عنه قديسون شرقاً وغرباً ويمكن أن نوجز ردودهم في فكرتين: الله محبة مطلقة نعم، والله أيضاً عدل مطلق، ليس في الله محبة أكثر من عدل، أو عدل أكثر من رحمة، فان فاضت محبته بالرحمة والصفح، فان عدله يتطلب أن ينال كل كائن ما يستحق، الفكرة الثانية أن الله قدوس بقدر ما هو محب وبقدر ما هو عادل، ولأنه قدوس فلا يتحد به أو أن ينضم إلى موكب ملكوته إلا من لبس ثوب القداسة وعاش بها مجتهداً مثابراً، الله محبة والله عدل والله قدوس، بمحبة الله نلنا المسيح وسبل الخلاص بعدل الله نلنا ما نستحق على أعمالنا بقداسة الله نتقدس لكي نتحد به، فليس هناك تعارض بين محبته وبين عدله.

قاطعه قسطور: لو عاملنا الله بعدله لهلكنا جميعاً "إن كنت للآثام راصداً يا رب يا رب من يثبت أمامك" ثم هل غلبت المحبة أم غلب العدل في حدث اللص اليمين الذي نال الصفح في لحظة وسرق الملكوت ولو طبق العدل

الإلهي لكان مصيره جهنم وهل القديس اوغسطينوس صاحب الماضي الأثيم والقديس موسى الأسود طبق عليهم العدل أم شملتهم النعمة..

لا.. لا.. أنا أظن أن الله محبة بلا حدود

وكان شاكر منهمكا في إشعال سيجارة وقد أعجبته ملاحظة قسطور فقال: في معاملتي لأولادي المحبة تغلب العدل وأظن أننا تعلمنا أن الله أبو لنا فمحبته غالبة أنما التخويف بجهنم الأبدي ربما يكون وسيلة للتقويم

فأعترض عازر: يعني الحكاية بقت سايبة مادام مفيش جهنم، يعني المرحوم ابو فلتس اللي طلق مراته وأتجوز واحدة تانية وثالثة بعد عن الكنيسة هو دلوقتي مش في جهنم.

قال شاكر يا أخي يمكن على آخر دقيقه قال اذكرني يا رب إذا جئت في ملكوتك وصاح أحد الفلاحين الواقفين: يبقى خلاص نعمل ما نريد ونقول اذكرني يارب، قال فلاح آخر: يبقى الفرق أية بين القديس انطونيوس ومارجرجس الشهيد وبين المرحوم أبو كشك يعني الحكاية بقت سهله... وبدا كل من الواقفين يريد أن يدلو بدلوه، أشار لهم الكاهن أن اصمتوا ثم بدا في حديث هادئ عميق:

الله محبة ، ولا يشاء موت الخاطئ،

والله عدل لا يحابي،

والله قداسة لا يتحد به إلا من عليه ثوب النعمة، أما كيف يتعامل الله مع كل إنسان وكل ضمير فذلك أمر لا ندركه..

صمت الجميع، عن غير اقتناع، وأنتفض الشبان الثلاثة وقالوا في صوت واحد: للحديث بقية أما الكاهن فقد عاد إلى حجرته وقلب كتبه والمحاضرات التي كتبها في الاكليريكية وشعر أنه بحاجة ماسة إلى العون الإلهي.



هل زارت العائلة المقدسة كل هذه الأمكنة المنتشرة بطول وادي النيل من الإسكندرية إلى أسوان وهي التي تسللت هاربة في جنح الظلام خوفاً من بطش ملك فاسق فاجر عرف عنه أنه قتل أفراد أسرته، وأنه لم يكن على خلق أو ضميرا.

كيف يمكن للعقل أن يقتنع بأن مريم العذراء التي اؤتمنت على جوهرة السماء، ولم يعبر بها ربيع الثامنة عشرة، يحرسها شاب تقي هو يوسف النجار، كيف يقتنع العقل بأنها طافت الديار المصرية من شمالها إلى جنوبها ففي صحراء الإسكندرية دير قيل أن العذراء استراحت على أرضه وقرب شواطئ البحر الأحمر أديرة للعذراء وفي نواحي الجيزة، وقرب العاصمة الفرعونية منف، وفي أطراف بني سويف، وعلى جبل المنيا نواحي سمالوط، وغرب أسيوط على جبل درنكة والقوصية وفي سوهاج دير للعذراء وفي قنا، وأسوان ترى لماذا لم تمتد رحلتها إلى السودان وأفريقيا؟

بعض المؤرخين من الأقباط يشير إلى أن العائلة المقدسة ذهبت إلى كل الأمكنة التي ذكرناها حتى لا تصل إليه عيون هيرودس، والأمر المثير للدهشة والتساؤل أن بعض المؤرخين المسلمين العرب نقل هذه الرحلة كما وصفها المؤرخون من الأقباط، لكننا لا نجد سنداً واحداً يؤكدها من مؤرخين غير أقباط وغير مسلمين...

والقديس متى وحده دون كتاب الوحي الإنجيلي ذكر زيارة العائلة المقدسة إلى مصر، فلماذا صمت لوقا الطبيب ومرقس تلميذ بطرس ويوحنا حبيب المسيح، لماذا صمتوا أمام هذه الواقعة؟ ولماذا لم يشر إليها بولس في رسائله؟.

إني من المعتقدين تماما بصحة وصدق رواية إنجيل متى برغم ما توحي إليه من رموز إلى تحقق نبؤات العهد القديم "من مصر دعوت أبني" لكني من المؤمنين بأن رحلة العذراء إلى مصر لم تذهب أبعد من حدود مصر حيث عبرتها، لتقيم في هليوبوليس أو عين شمس وظني يستند إلى أمرين

الأمر الأول أن هذه المنطقة ظلت مزدحمة باليهود حتى بعد رحيل بني إسرائيل مع موسى، كما أن موسى النبي كان كاهناً وأستاذاً بجامعة هليوبوليس قبل دعوته عند العليقة، فرغبت العائلة المقدسة أن تقيم في صمت وصلاة بين أبناء عشيرتها لما في ذلك من تيسير لها في أمور الحياة.

الأمر الثاني أن العائلة المقدسة رغبت أن تظل أخبار فلسطين على مقربة من مسامعها انتظاراً لأمر السماء بالعودة، حين يرحل الملك الظالم ولا ننكر أن كثيرين من المفسرين لإنجيل متى يرون أن زيارة العائلة المقدسة لمصر لم تدم زمناً طويلاً.

يهدف هذا المقال إلى توضيح قضية هامة، لقد حاول صاحبنا الكاهن الشاب أن يطرح رأيه للفلاحين في قريتهم، محاولاً أن يثنيهم عن تبديد أموالهم القليلة في الموالد والزيارات البعيدة، بل وحثهم على الإقلال من النذور مادام البيت يحتاج إلى هذه الأموال، ولكن الفلاح المصري، من طول المعاناة خلال القرون من الحكام وتوابعهم، ومن قطاع الطرق، ومن جامعي الضرائب والمكوس، لا يجد وسيلة لتخفيف آلامه إلا التماس الشفاعة من الأولياء والقديسين، لقد فقد الثقة في كل سلطة، وبات لا يطمئن للأغنياء وأصحاب النفوذ، فانطوى على ذاته يجتر آلامه، يتخذ من أناشيد الحزن "يعدد أو يرثي موتاه" وسيلة للتنفيس عن أوجاعه، ويلجأ إلى السماء علها تنصفه من أهل الأرض، يحلم بالفارس العادل الذي يحكم بين الناس بالقسطاس والمساواة.

وهدف المقال أيضاً أن يميز في وضوح الفرق بين الإيمان وبين التقاليد الموروثة والطقوس الدينية التي هي تعبير عن الإيمان لكنها ليست عقائد ملزمة أو ثوابت لا تتغير، اغلب الظن أن الشرق كله من الصين إلى المغرب، الشرق الأقصى والشرق الأوسط، يخلط بين ما هو إيمان وعقيدة، وبين ما هو تقليد

وطقس، فالإيمان الذي استلمته الكنيسة المقدسة من المسيح ومن رسله وحددته في تعاليم واضحة هذا الإيمان لا يتغير ولا يتبدل ولا ينقص، أما العادات والتقاليد والطقوس، برغم قدسيتها وما تتدفق فيها من معاني روحية، فهي مدرسة يتعلم فيها المسيحي إيمانه، لكن المدرسة أو الطقوس قابلة للتجدد والتطور وفق ما تراه الكنيسة ويتفق عليه آباء المجامع المقدسة لا وفق مزاج وتقلبات الأفراد. فليس من حق الكاهن مثلاً أن يلبس ما شاء عند إقامة الذبيحة، وليس له أن يدخل نصوص من عنده في الصلوات، وليس له الحق أن يغير الألحان الكنسية وفق هواه، وإلا أصبحت الأمور فوضى بلا رابط وبلا وحدة في الكنيسة الواحدة.

على كل حال لم ينجح صاحبنا الكاهن الشاب في أن يثني شعب القرية عن الذهاب إلى الموالد، كما لم يستطع أن يقنع الشمامسة بعدم إطالة الألحان بل احتج عليه كثيرون من البسطاء متذمرين إذ كيف يقول بأن العذراء لم تذهب إلى دير المحرق، وكيف إنها لم تسترح على جبل درنكة، وكيف يحاول خلع من وجدان الإنسان البسيط اقتناعه بأن بركة العائلة المقدسة قد طوفت أغلب المدن والقرى وقال أحد الفلاحين في سخرية: مين عارف كمان يقول إن مارجرجس ماقتلش الوحش وما كنش فرسه أبيض.

وتعلم الكاهن الشاب أن التغيير الجذري في عقل وقلب أي إنسان، يبدأ بالبناء لا الهدم ببناء حياة روحية عميقة قبل تغيير التقاليد والعادات...

وتمضي الأيام



مضى عام وأكثر قليلاً والكاهن الشاب في القرية، وجد نفسه منهمكاً في الدراسة ليتقدم لامتحان الثانوية العامة أو شهادة الثقافة من منازلهم، أعانه صديقه جرانت على جلب الكتب القديمة فلم يكن الحال كما هو اليوم، حيث تتبدل المقررات بشكل مزعج للأهل وللطلاب، كانت هناك علوم ثابتة وكتبها تصلح لسنوات عديدة، رغب الكاهن وفق ميوله أن يختار القسم الأدبي، لسهولة الدراسة فيها دون معلم، إذ يغلب عليه الطابع النظري لا الطابع العلمي، كما كان في أعماقه ميل جارف للآداب والفلسفة وعلوم التاريخ، فانحاز إلى أهل الأدب، ويعلم الله كم عانى من دراسة الجبر فقد كانت مادته إجبارية على طلاب القسم العلمي وطلاب القسم الأدبي، كان بينه وبين الجبر جفاء شديد ظل هذا الجفاء يلازمه مدى الحياة، وحتى بعد أن مضى من العمر الكثير لازال على جفاء من علوم الرياضة والجبر والكمبيوتر والحسابات، لقد عشق الأدب عشقاً شديداً وحفظ من الشعر الكثير، وقرأ أغلب كتب التراث العربي عشق ديوان أبي العلاء المعري وكتب بيتاً من شعره وضعه أمامه على طاولة ليردده كل يوم يقول أبو العلاء:

أيها الإنسان: خفف الوطء فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

يريد أن يقول أيها الإنسان لا تتكبر ولا تمشي الخيلاء ولا يملؤك الزهو والغرور فهذا التراب الذي تسير فوقه كان بشراً وأناساً ربما أكثر منك ذكاء وحيوية كما أحب المتنبي في كبريائه وعزة نفسه التي قتلته فقد كان يملك

شعوراً رومانسياً رقيقاً لا يطفو على السطح إلا نادراً حين يخلو إلى نفسه ويخلع ثوب الكبرياء والغرور وهو القائل:

ارق على ارق ومثلي يا أرق

وجوي يزيد وعبرة تترقرق

وعذلت أهل العشق حتى ذقته

وعجبت كيف يموت من لا يعشق

يود أن يقول أن الإنسان الذي يخلو قلبه من الهوى ويسيطر على إرادته ولا يسلم جسده للملذات، إنما هو إنسان خالد لا يموت، هنا إشارة رائعة لجمال العفة وحياة النقاء والطهر.

أحب كتاب اعترافات القديس أغسطينوس، سلاسل من ذهب صدق في السرد، صفاء في التعبير، حياة روحية تتدفق بين السطور عشق للمسيح الكلمة المتجسد، بل ذوبان فيه.

خشى صاحبنا الكاهن أن تأخذه الدراسة من مهامه الرسولية وأعلن في الكنيسة بعد قداس الأحد، أنه سيقوم بشرح إنجيل يوحنا كل مساء في اجتماع الساعة السادسة بعد عودة الفلاحين من الحقل.. لم يكن يتخيل عطش الناس إلى سماع كلمة الله، فقد ازدحمت الكنيسة بالفلاحين الذين بهرهم الكاهن الشاب بسحر عظاته وتدفق كلماته في يسر وجمال، بدأ الكاهن عظته بشرح الآيات الأولى من إنجيل يوحنا: في البدء كان الكلمة... وراح يشرح قصة الخلق، وروح الله يرفرف في البدء على الكون ثم انبرى يتأمل في معنى "الكلمة"، كان يظن أن الحديث إلى فلاحين بسطاء أمر سهل وهين يتقبلون عظة الكاهن مهما شطح حيناً أو أفلت منه زمام الكلمة التي لم يعدها أعداداً جيداً، وأذ به يكتشف أن الفلاحين البسطاء لهم ضمائر نافذة ووعي روحي عميق أنهم لا يتقنون فنون المنطق العلمي والفلسفة النظرية ولكنهم يشعرون بصدق الكلمة وبقوة

الروح وبتسلسل الفكر، انتهت العظة في الاجتماع الأول، وخرج الناس مبهورين إلا عم أيوب الذي أشتهر بحفظ أغلب آيات الكتاب المقدس حفظاً دقيقاً والذي قرأ كتب طقسية كثيرة واعترض عم أيوب طريق الكاهن الشاب، وقال له: تسمح يا قدس أبونا بكلمتين

- أتفضل يا عم أيوب

- اسمع أنت زي أبني. هتكون واعظاً قديراً ولكن بشرطين أن حققتها أول شرط أن تتضمن العظة آيات بينات مع مرجعها من الكتاب فعظاتك البليغة فقيرة في الاستشهاد بها، الشرط الثاني أن تعد العظة أعداداً طيباً متقناً ن يا أبني المسألة مش فهلوة ولا فذلكة، دا أنت تقدم للناس سر المسيح وتجسده، لازم تحضر العظة تحضيراً روحياً

استمع الكاهن إلى كلمات عم أيوب، أفرغت غروره من الاعتزاز بالذات، شعر بأنه تلميذ صغير واري خجله، قبل عم أيوب وشكره، ولم يكن يتخيل أن فلاحاً بسيطاً يعلمه أسس الوعظ والإرشاد وأقسم ولم يخلف قسمه حتى اليوم علي ألا يقول عظة أو محاضرة أو درساً إلا وقد أعد الأمر أعداداً متقناً.

وتمضى به الأيام



سئلت من قراء كثيرين هل هي مذكرات صادقة وأحداث حقيقية أم هي من وحي الخيال الشاطح والذاكرة المتألمة؟ ونسى القراء أني عاهدتهم في المقال الأول أن تكون هذه الذكريات من صدى السنوات العابرة، أنها أحداث حقيقية لا خيال فيها ولا مجاملة، أنها نبض من مسيرة كاهن أحب الكنيسة حبا ملك عليه قلبه وجاهد في أن يكون بقدر ما أتاحت له نعمة المسيح، خادماً أميناً وهو يكتب مذكراته عبرة وعظة من جهة وشهادة حية لإيمان القرية من جهة أخرى ويعلم الله أنه صادق كل الصدق فيما يرويه، مخلص أشد الإخلاص في سرد التفاصيل والمواقف.

أما مقال اليوم، فهو ذكرى محفوظة في الأعماق بكل دقة لا تزال صورتها حية متوهجة في وجدان صاحبنا الكاهن، لقد عرف جورج بشارة وأخاه فؤاد بشارة، كان لهما محل أحذية في جي المنشية، لعله قائم حتى اليوم على بعد دقائق سيراً على الأقدام من الكنيسة، كان الدكان استراحة الكاهن الشاب بين الحين والحين، حين يمل الجلوس وحده، ولا يجد من الفلاحين أحداً، فقد ذهب جميعهم إلى الحقل، وشغلت الفلاحات بأمور البيت وشئون الزوج والولد، ويبقى الرجال العاملون في التجارة، البقالة، أو بيع الخضار وسقط الفاكهة، كما يبقى العاطلون والشيوخ العجزة والأطفال الذين حرموا من الذهاب للمدرسة لفشلهم وتعثرهم في السنوات الأولى، أو لفشل المدرسة في جذبهم إلى نور التعليم أو بسبب عجز والديهم عن شراء أبسط الحاجات المدرسية، يمضي الكاهن وقد شدته قدماه إلى دكان جورج وفؤاد ، ليستريح

قليلاً ويشرب معهما الشاي، ولا يخرج الحديث عن تفسير آية من آيات الإنجيل أو مناقشة شخصية من شخصيات العهد القديم وما أكثر التساؤل حول ذبيحة إسحاق وكيف واجه إبراهيم أبو الآباء الموقف الحزين ، وهل هي قصة واقعية أم هي قصة رمزية.

الدكان لا تزيد مساحته عن تسعة أمتار مربعة (٣ X ٣) أقول "دكان" احتراماً وتجاوزاً، فهو أقرب إلى العشة، الحوائط بالحجارة القديمة المتهالكة، الأرضية متربة ترش دوماً بالماء والسقف أخشاب بسطت على جذوع النخل وقد رصت فوق رفوف خشبية متقاطعة أحذية قديمة ينتظر أصحابها ترقيعها وسد منافذها، هذا حذاء عم أيوب في حاجة إلى نعل جديد بعد أن نحل الزمان خيوط النعل القديم، وهذه "بلغة" الشماس صموئيل، وهي كما سبق وذكرتها حذاء بدون ظهر وبدون كعب وإنما هي حافظة من الجلد تدخل فيها القدم، يستخدمها غالبية الفلاحين لسهولة لبسها وسهولة خلعها ولا تحتاج إلى شراب، وهذا شبشب الست خضرة تقسم أن علاقته بها دامت أكثر من عشرين عاماً والفضل يعود لجورج وفؤاد فهما أساتذة في إصلاح الأحذية وترميم البلغ وإعادة الفائدة للمراكيب.

أما صناعة أحذية جديدة، فيتقنها جورج وشقيقه أتقاناً تاماً، غير أنها صناعة تدر أرباحاً قليلة، وهما لا يملكان أرضاً زراعية ولا يعرفان إلا هذه المهنة ويندر أن يشتري فلاح حذاء جديداً، وإنما تشتد الحاجة إلي ذلك عند بدء السنة الدراسية، يلح التلاميذ الصغار على وضع أقدامهم في أحذية جديدة، ويذكر صاحبنا أن الحذاء الجديد لم يكن ثمنه يتعدى جنيهين قد يدفعهما الرجل مرة واحدة أو على أقساط (شُكك) وعلى رف بجوار طاولة جورج رصت قوالب خشبية هي (شاسيه) أو هيكل الحذاء، يجلس جورج على هذه الطاولة الصغيرة التي قد أعيد ترميمها مرات كثيرة، يضع أمامه قالباً خشبياً وفق مقاس الحذاء المطلوب وأمامه على الطاولة آلات الشغل، سكين حاد لقطع

الجلد، شاكوش صغير، مسامير دقيقة، غراء للصق الجلد، مقص، قطع من الجلد بألوان متنوعة. فهو مكلف بإعداد الحذاء أما فؤاد فمهمته التشطيب النهائي وأمامه طاولة لا تقل قدما عن طاولة شقيقة وليست بأفضل حال، يعمل الشقيقان متعاونين، ويشهد الله أن صاحبنا الكاهن أحبهما حباً شديداً، كان جورج ذا بشرة بيضاء ناصعة، حاد الذكاء، جاداً في عملة، أميناً دقيقاً صادقاً وفوق ذلك كله، كان يحب الصلاة وتدمع عيناه دوما أثناء ذبيحة القداس، لم يره الكاهن مرة واحدة غاضباً أو ساثراً ولم يسمعه مرة يتلفظ بكلمات نابية، كان تقياً ورعاً، محبوباً عند الناس، رفيقاً بزوجته وأولاده، دعني أبالغ في قولي، كان قديساً تعلم منه الكاهن صاحبنا، رقة الحديث ونبل اللفظ، ولم يكن شقيقه فؤاد بأقل منه ورعاً وتقوى، رضى بما قسم له، فقد رزق بابنة وحيدة زوجها فيما بعد لأبن شقيقه، أما جورج فقد قدم للكنيسة راهبة من بناته، وكان يتمنى الكهنوت لأحد أبنائه ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فقد تخرج أولاده من المدارس ومارسوا الحياة في أعمال بسيطة، وتوفى أبنه الأكبر بعد زواجه بقليل ولم يصل إلى الأربعين.

كان اليوم خميساً، والسوق مزدحمة في القرية وجورج وفؤاد يجلسان في الدكان، وجاء صاحبنا الكاهن، جلس في مكان أعد له بجوار الحائط، على دكه خشبية، يتأمل السائرين في الشارع، هذا يجذب جاموسته، وآخر راكباً حماره، وآخر يسوق أمامه قطيعاً من الغنم، وبائع بطيخ ينادي بأعلى صوته "حمار وحلاوة" الحاء بالفتحة من فضلك، وفجأة قال جورج: يا قدس أبونا "الكلوسه" أو القلنسوة على رأسك (أكلحت) أصابتها الشيخوخة وتحول لونها الأسود إلى ألوان الطيف، لابد من عمل كلوسه جديدة

قال صاحبنا: يا جورج الكلوسه تكلف أكثر من أربعة جنيهات، قماش قطيفة، ومصنعيه، ولازم تتعمل في مصر في شارع كلوت بك عند واحد معروف.

قال جورج: أية رأيك ها نعملك واحدة... القماش من عنـــدي، القـــالب الخشبي من عندي.

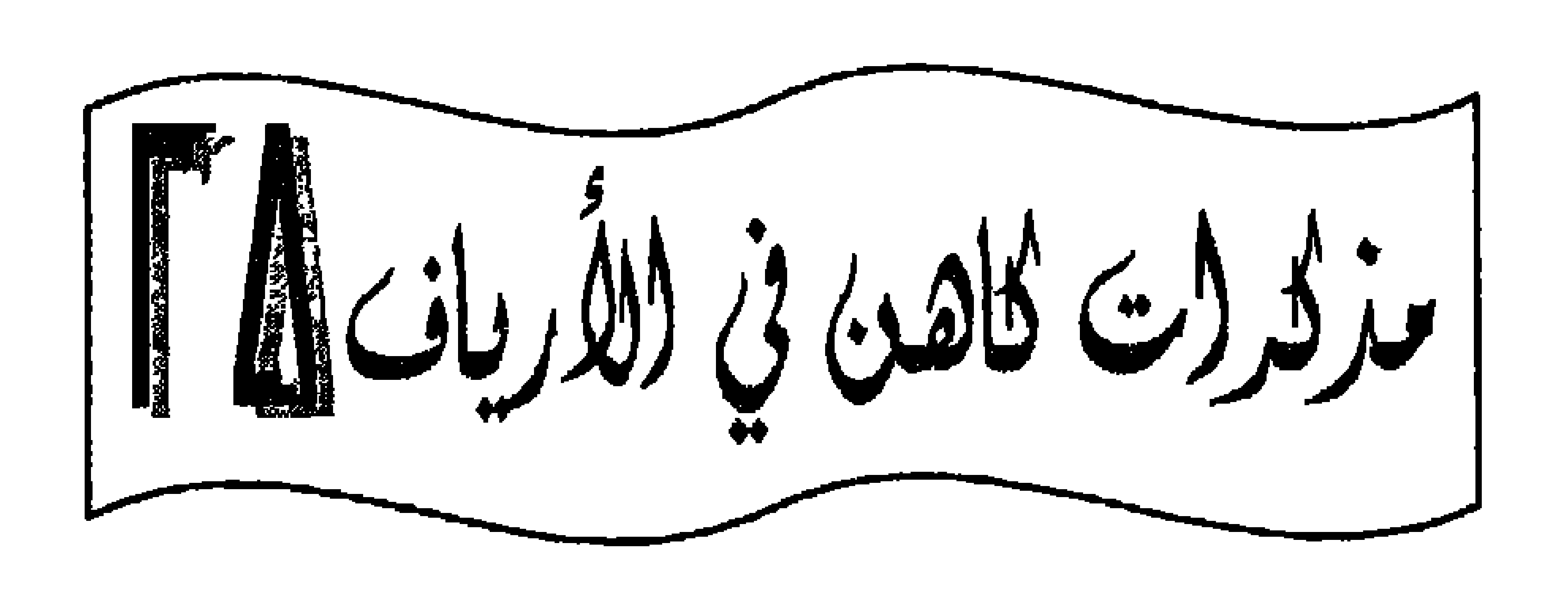
صاح الكاهن: أية دا يا جورج- قالب جزمه.

قال جورج: عفوا يا قدس أبونا.. لع.. لع .. مش قالب جزمـــه دا قـــالب هاعمله مخصوص بس من نفس الخشب.

سرح الكاهن بفكرة لحظة، وتساءل في صمت، ما الفرق بين قالب الحذاء وقالب الطربوش وقالب العمة.. أن كان للرأس كرامتها ورمزها فـــأن للقـــدم أيضاً كرامة، وجسد الإنسان هيكل لله الخالق.

بادره جورج قلت أيه.. دي هدية من عندي، وأنتصب واقفاً ومعه خيـــط أخذه من بكرة خيوط أمامه، ولف الخيط حول رأس صاحبنا الكـــاهن وأخـــذ مقاس الرأس، القطر الدائري، ومقاس ارتفاع الكلوسه.. وصاحبنا مستسلم فـــي ذهول وحيرة، كيف يسمح "لجزمجي" أن يصنع عمته، وماذا ســـيقول النـــاس، ولكنه أمام إغراء المجانية آثر الصمت.

ولم تمض أيام حتى قدم جورج الكلوسه لصاحبنا، وجاءت دقيقة رائعة، لم يزل يحتفظ حتى اليوم ببقاياها بعد أن هرمت كما يحتفظ بســـرها لقـــد تمـــت صناعتها على قالب خشبي في دكان جورج بالقرية.



جاء أمر إلى صاحبنا الكاهن من المطرانية، عن طريق تليفون العمدة، أذهب إلى قرية "الكفور" وهي من نواحي مركز بني مزار حيث تتواجد ثلاث عائلات كاثوليكية لا أكثر ولا أقل، والعائلات أرسلت مندوباً عنها إلى المطران فهي تحتاج إلى رعاية روحية، إلى تعميد بعض الأطفال، وإلى بركة إكليل عروسين من شبابها، القرية تبعد أكثر من عشرة كيلو مترات عن بردنوها، وينبغي الذهاب أولاً إلى بني مزار ومنها "أتوبيس- سانت كروفت" الذي لا يصلح إلا لحمل الدواب والطيور وأقفصة الفاكهة ومعها تجاوزاً بني آدم، يجلسون محشورين بين الأشياء والحيوانات وأغلب الظن أن هذه الأشياء كانت أهم من الإنسان إذ تحتل الكراسي والأرفف ويظل بنو آدم واقفين يحتضنون ثروتهم ولقمة عيشهم، أن الأشياء تبدو أغلى من الإنسان عند بعض الناس.

ومضى صاحبنا الكاهن إلى القرية المنكورة ومعه أسم كبير هذه العائلات العم منقريوس، كان اليوم هو الثلاثاء من شهر أكتوبر ١٩٦١ لا يذكر بالدقة موقع اليوم من الشهر وأغلب الظن أنه آخر ثلاثاء منه، وأختار هذا اليوم بالاتفاق مع المطرانية لأنه خال من زحام الأسواق.

أستقبل العم منقريوس كاهننا بالترحاب الشديد، وبالأحضان والقبلات ورحب به باقي أفراد هذه العائلات الثلاث فرحين مستبشرين خيراً مسرورين في فرح غامر، زارنا المسيح النهاردة دخل بيتنا، كان يختلط في أعماقه الإحساس بالفخر والكبرياء أمام هذه العبارة والإحساس بالرهبة والضآلة فالمقارنة بين المسيح وبين كاهن شاب بسيط، غير معقولة، ومرعبة ولكنه

تمالك أحاسيسه وسيطر على ذاته، بابتسامة واسعة، أعدت العائلة مذبحاً لإقامة القداس، احتفظت بخمس خبزات من القربان جلبتها يوم الأحد من الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كما أحتفظ صاحبنا ببعض النبيذ في زجاجة صغيرة وبملابس الصلاة، التونية والطيلاسانه، أقيمت الذبيحة الإلهية في صحن الدار، وأنشد الحاضرون معاً بعض نصوصها، قدوس، قدوس، قدوس، بشفاعة والدة الإله، أمين أمين بموتك، بركاتهم المقدسة، كان اللحن القبطي شجياً عميقا ينساب من قلوب البسطاء في غير تكلف وفي غير إتقان وتقدم جميع أعضاء العائلات إلى سر القربان، وطلب من الكاهن أن يرش الدار بالماء المبارك وأن يفعل الأمر ذاته في البيوت الثلاثة وهي متجاورة ومتلاصقة، وفي أثناء تجواله يحمل الماء المبارك طلب منه أن يرش جاموسة المعلم زاخر وأغنام المقدسة الأرمل أم عزيز، وألح يوسف أبو فخري أن يصلي على رأس الحمار، ولم يتوان صاحبنا عن تحقيق رغبة كل أبناء العائلات الثلاث، ووزع على الأطفال الصور الدينية وأيقونة أم النور، التي يقال عنها الأيقونة العجائبية التي تصور مريم العذراء في إحدى ظهوراتها.

أعد المعلم منقريوس مأدبة غذاء لصاحبنا الكاهن ذبح أكثر من بطة، وثلاثة ديكه فهم يقدمون الديك طعاما شهياً ويحتفظون بالدجاج لجلب البيض، وعطرت رائحة التقلية والسمن البلدي والملوخية والأرز المفلفل، صحن الدار، وجلس الجميع حول "طبلية ضخمة" ولم ينس صاحبنا نصيبه من البصل والفجل، وكانت الفاكهة بلحاً صعيدياً لم يتذوق صاحبنا أحلى منه، وله في كيانه عشق خاص، سوف ينمو هذا العشق على طول السنين ولا يزال البلح هو الفاكهة المفضلة عنده، أنه يراه أحلى من كل أنواع التفاح بل من كل ألوان الفاكهة ما عدا المانجو المصرية ولكنها مرتفعة الثمن، ولا يزال في أعماقه حب شديد لشجرة "النخيل" حتى أنه لم ينتقل إلى أي كنيسة إلا وزرع فيها نخلتين أو أكثر، أنه يرى في هذه الشجرة صلاة مرفوعة في صمت، ويرى

فيها نبلاً وكبرياء، وصموداً وقوة ولا يزال يحتفظ في الذاكرة بهذا البيت من الشعر:

كن كالنخيل باسط الأذرع كرماً يلقى بالحجر فيعطي أطيب الثمر

هل البيت دقيق أما سقط عنه الوزن وتبدلت الكلمات ؟

قضى صاحبنا نصف يومه مع العائلات البسيطة المؤمنة وحان موعد الرحيل وإذا بالعم منقريوس يحتضن الكاهن الشاب ثم يضع في يده لفافة قائلاً: دي لمة الطبق ويذكر صاحبنا أن اللفافة ضمت ثلاثة جنيهات، أضطرب الكاهن، حاول أن يتملص من الموقف الحرج، رفض بأباء.

فقال عم منقريوس: ليه بس يا أبونا، هو المبلغ قليل واللا أية.

وأهتز الكاهن للعبارة اهتزازاً شديداً بل وطفرت دموع من عينيه وقال في صوت خافت حزين: أبدا يا عم منقريوس، أنا مش محتاج، وأنت ناس على قدكم.

قال الرجل: دي زيارتك لا تقدر بثمن، دا أحنا محتاجين لها ولو مرة كل شهر، دي بركة عظيمة، ثم أردف والموكب سائر نحو محطة الأتوبيس: جرجس ودميانه إكليلهما بعد أسبوعين هانعمله يوم الأحد في المغرب تكون أنهيت الصلاة في بردنوها.

قال الكاهن: أنا خدامكم وتحت أمركم..

* * * * * * * *

في طريق العودة والأتوبيس يهتز اهتزازا شديداً لم يشعر به كثيراً صاحبنا لأنه غرق في تأمل عميق، ما معنى هذا الإيمان الجارف في قلوب

البسطاء وهذا الانتماء للعقيدة وبسر القربان بنوع خاص، كيف يمكن رعاية هذه العائلات المشتتة، وهل سيظل إيمانهم متوهجاً في قلوب الأجيال الصاعدة، وأين رسالة الكنيسة في القرى والكفور النائية؟ أليس الفلاحون والصعايدة هم جذور الكنيسة وأساسها الذين عبروا القرون والصعاب والآلام واحتفظوا بالإيمان، تنهد الكاهن وهو يشهد من نافذة الأتوبيس منارة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية على مشارف القرية، وتطلع إلى السماء إلى الفضاء الفسيح، وخرجت من أعماقه صرخة مكتومة: يا أم النور وحدي الكنيسة، وردد كلمات القديس اغريغوريوس: لينقض انقسام الكنيسة.

أما عرس جرجس ودميانه فلهو حديث آخر.

ويوم الرياضة الروحية الشهرية، التقى صاحبنا الكاهن الشاب ووكيل المطرانية وسأله الأب الوكيل: هل ذهبت إلى الكفور.

أجابه: طبعاً.. كانت زيارة ناجحة والحمد لله.

هل يمكن أن تقوم بها كل شهر.

نعم.. نعم..

لك جنيه واحد، مصروف انتقال، من بردنوها إلى بني مزار عشرة قروش ومنها إلى الكفور ربع جنيه.. تفضل جنيه بحاله.

قال الكاهن: لكنهم لموا الطبق وأعطوني ثلاثة جنيهات.

قال الأب الوكيل- رحمه الله- أذن، أخذت حقك، وأعاد الجنيه إلى درج مكتبه، ثم صمت لحظة، وأخرج الجنيه مرة أخرى قائلاً لا داعي للاحتفاظ به فقد صرف بإيصال، وأعطاه للكاهن الذي تعجب للأمر كثيراً.



شهر نوفمبر له ذكرى مقدسة عند المسيحيين، أنه يسبق صيام الميلاد وشهر كيهك (ديسمبر) المكرس للعذراء أم النور، وقدسيته نابعة من ذكرى الأموات، لماذا نوفمبر بنوع خاص، لست أدري، ربما لأنه يبدأ بعيد جميع القديسين، وفي ذلك المعنى الرائع بأن كل من أنتقل على الإيمان المسيحي فهو من القديسين، أو قل أن شفاعة القديسين بعض من إيمان الكنيسة، ونحن نتشفع بقديسين نالوا الشهرة، ولكن ، قديسون كثيرون طواهم النسيان، أقصد نسيتهم ذاكرة البشر، ولكنهم عند ربهم يجازون وينالون إكليل المجد.

استعدت القرية عن بكرة أبيها للخروج إلى المدافن وهي لا تبعد كثيراً عن القرية أو "الطلعة" أو زيارة الموتى، الغني والفقير، الذي فقد حبيباً وعزيزاً منذ زمن قريب أو الذي فقده منذ زمن بعيد لكن ذكراه ملحة وخياله يطوف به، أغلب الظن، أن زيارة الموتى في موكب صاخب، يجدد الحزن والجراح ويجري الدموع، ويردد صدى الرثاء "التعديد"، لهو أمر ورثناه عن أجدادنا الفراعنة العظام، لقد قامت حضارتهم على أمرين هامين ، الإيمان بالإله الواحد الأعظم، وأن كان ذلك لم يمنع بقاء آلهة صغيرة، فلكل مدينة شفيعها أو إلهها ، ورمزها الروحي، ولكن عقيدة التوحيد، سادت عقلية حوض البحر المتوسط منذ إخناتون وحتى مجيء المسيح، وتعلمها أرسطو أستاذ الإسكندر الأكبر، ووضعها في قالب فلسفي وبراهين منطقية خمسة لا زالت هذه الأدلة الخمسة لوحدانية الخالق يدرسها طلاب الجامعات في كل أنحاء الأرض ، والأمر الثاني عودة الروح وتتضمن عقيدة خلودها وازليتها، يؤمن الفرعوني القديم

بأن الروح تعود لجسدها إن كانت صالحة وكفة الخير في حياتها أثقل من كفة الشر ، ولذا وضع أجدادنا كل ألوان الطعام المستحب في حياة الميت، وانتقلت هذه العادة إلى الأحفاد حتى يومنا وإن اتخذت سلوكاً جديداً، إذ يحمل أهل الميت، القطائر، والبلح ، والبيض، وعدة الشاي والكركدية، وتوزع الأطعمة على الفقراء بدلاً من تركها داخل القبور كما كان يفعل الأجداد، وزيارة الموتى طقس مصري أصيل إذ يندر أن تشاهده في بلاد أخرى، ويندر أن يتم على النمط المصري أو الفرعوني.

وقد حول الإيمان المسيحي هذه العادة من طقس تشوبه عقائد وثنية مثل إحاطة صندوق الميت بالمأكولات والمجوهرات التي كان يتعلق بها ولذا كثرت الآثار المصرية الثمينة ولها تجارة عالمية، إلى توزيع المأكولات وثياب الميت على المساكين والمحتاجين، وحول كتابة التمائم والأحجبه وتعليقها حول الميت، إلى إقامة القداس وصلاة الجناز على المقابر، وبرغم الإيمان المسيحي العميق في قلوب البسطاء، فلا زالت بعض الخرافات تسيطر على عقول الجهلة، كخرافة الخوف من أن يلبس شيطان الزائرين للموتى، أو الخوف من الظلام، أو صناعة الأحجبه والتمائم، التي قد يشجعها بنية ساذجة بعض من رجال الدين..

* * * * * * * * *

عند الفجر مع شروق الشمس تخرج مواكب الحزن من بيوت الفلاحين، تتجمع الفلاحات بملابسهن السوداء، والفقر سمة غالبة عليها، يتقدمهن الأطفال كأنهم ذاهبون إلى حفل، تحمل النساء على رؤوسهن السلال أو القفف كما يحمل الصغار قلل الماء، يسير الموكب هادئاً ، يتبادل الجميع الأحاديث عن الهموم والذكريات، وما أن تبدو المدافن على بعد حتى ينفجر بركان من العويل والبكاء، يحيط الموكب بالمقابر، تتناثر النساء والأطفال حولها، كل يلمس القبر

الذي يضم الأحياء الراحلين، يناديه، يسترجع الذكريات، يتحول المكان إلى ما يشبه المسرح يقدم مأساة كئيبة، الرجال قليلون بل نادرون يقفون على بعد خطوات، يشتد العويل، تشق الصرخات المكلومة صمت فضاء رحب، يتردد صدى الحزن والأنين، يظل الحال ساعات، يأتي صاحبنا الكاهن مع كهنة آخرين، يحمل الواحد منهم مبخرة (الشورية) وخلفه شماسه، تتصاعد رائحة البخور، تنادي النسوة على الكاهن، تعال يا قدس أبونا، صلِ من أجل المرحوم حنين، أذكر موسى، لا تنسى دميانه، ينشد الكاهن صلاة (أوشيه) الراقدين، تبدأ بالكلمات (أولئك يا رب الذين أخذت نفوسهم، نيحهم في ملكوت السموات) الألحان القبطية تتدفق حزناً وشجناً، يختلط صوت الكهنة بصياح النساء، وأحيانا بكاء الأطفال، الرجال القليلون صامتون، صراع القطط والكلاب، الحشرات تزحف حول القبور، منها العرس، والفئران والأبراص والخنافس كأنها أزعجت في سكونها.

يظل المشهد زمناً، تنسى الحياة والدنيا، وتتجسد الآخرة، ويتضخم شبح الموت، وتشتد الحاجة إلى كلمات التعزية والصلاة من أفواه الكهنة، تشبه اللحظات يوم الحشر، تذكر بيوم القيامة، هنا طبيعة أهل الشرق وملامح نفسيتهم، يجثم الماضي على وجدانهم، يتضاءل الإحساس بالمستقبل تتوارى الآمال والأحلام على عكس أهل الغرب، للموت عندهم حجم أصغر، للحياة المكانة العظمى، للمستقبل دور رئيسي في نسيج فكرهم وعواطفهم.

تهدأ عاصفة الحزن، تجف الدموع، تسكن حركات الأجساد فقد هدها الجوع والحزن، يلجأ الرجال إلى قبر مجهول، يتخذون حائطه متكأ، يدخنون الجوزة، تصمت النساء، توزع الطعام على الأطفال، وقد أندفع المتسولون من كل صوب يتلقون الحسنات، يجمعونها في أكياس أعدوها، يملأون جيوبهم، تتجمع القطط والكلاب، يبدأ الأطفال في العودة إلى اللعب في المساحات الخالية من القبور، يسود الهدوء، ينسحب الكهنة بمباخرهم ومع شمامستهم وقد أصابوا

بعض المال، تجلس النساء في حلقات يتبادلن أنواع الفطائر والبلح، أي مشهد غريب يجمع بين الموت وبين الحياة، ولا يمنع ذلك من صرخات أنين تشق صمت الفضاء، نساء تعزي نساء، رجال لا يحبون البكاء وأطفال تلهو.

* * * * * * * *

قبل غروب الشمس بقليل، وقد تكررت نوبات البكاء والعويل، يبدأ الموكب الاستعداد للعودة، التعب، والإرهاق، والحزن، ذلك كله يسود ملامح الموكب، يعود في صمت، كجيش عائد من هزيمة.

يعود صاحبنا الكاهن إلى صومعته، لا يدري أهو الحزن الذي يملأ قلبه؟ أم هي الحيرة من هذا المشهد الكئيب، لا يدري لكنه يدرك تماماً، أنه يوم يدفعه دفعاً إلى التفكير في الموت، ومشهد يشيع فيه الرغبة في التأمل، لم يستطع أن يجاري الحاضرين وأن يبكي مثلهم، وأن صلى من أجلهم، وأنه تأكد من الحقيقة المرة أن كل شئ باطل وقبض الريح، وتأكد أيضا أن هذا المشهد، طبع وجدانه بطابع من الحزن المقيم وبالنظرة المجردة للأشياء وللسلطة ولعله حتى اليوم لا يستعبد منها.



أسرع صاحبنا الكاهن الشاب إلى قرية الكفور بعد أن تناول غذاءه، وصحب معه شماسه صموئيل، فاليوم زفاف جرجس ودميانة.

أسرع في همة وفي إحساس لا يخلو من البهجة، فقد أحب العائلات الثلاث، أحب بساطة إيمانهم العميق، إن كانت البساطة لا تناقض العمق، أحب شدة انتمائهم لكنيستهم وطقسهم، وجهادهم المتصل من أجل لقمة العيش، فهم فلاحون لا يملكون الأرض التي يفلحونها وإنما هم أجراء، يعملون "باليومية" وبعض منهم يعمل في النجارة وإصلاح السواقي حينما يفرغ من عمل الحقل.

وصل إلى القرية قبل غروب الشمس بقليل، ويذكر أنه أوقف شماسه قبل دخول القرية عند رأس الشارع المؤدي إليها، وتساءل الشماس إن كان للكاهن حاجة يود أن يقضيها بين الأشجار، فابتسم الكاهن وقال:

بل لننظر إلى المشهد الرائع، السهول المنبسطة تثير الرغبة في التأمل، الحقول خضراء نضرة، أشجار الجميز والجوافة تعطر السماء برائحة أعمق بكثير من عطور كريستيان ديور، والطيور تغرد في انطلاقة الحياة كأنها تنشد للخالق أنشودة السجود والحمد، حتى نهيق الحمير يأتي صداه من بعيد ليس فيه قبحاً بالرغم من القول أنه أنكر الأصوات.

لعل المشهد الإلهي يضفي على النفس، طمأنينة ويسكب في القلب أمناً فلا ترى العين ولا تسمع الأذن إلا الجمال، سحب نوفمبر بالرغم من لونها الرمادي الداكن لا تحجب الشمس، بل ترسم لوحة إلهية، ما أبئس من لا يتأمل بهجتها..

دهش الشماس لصوت صاحبنا الكاهن: وطن سوءاً فقد خالجه شك في أن كاهنه مصاب بمرض أو بخيال مريض لكنه لم يقل شيئاً، الكاهن يتطلـــع فـــي شغف وعشق إلى جمال الريف المصري، وهو يرمق وجه الكاهن بنظـــرات القلق والحيرة..

****

وصل كاهننا وشماسه إلى بيت عم منقريـــوس، اســتقبله بفـــرح غـــامر وابتسامة عريضة مهلاً، التف أفراد العائلات يقبلون يده، يلتمسون بركته، ولا يخفي صاحبنا إحساسه بالخجل، ويسأل ضميره الجلاد الذي لا يرحـــم، هـــل تستحق أيها الكاهن الشاب هذا الإجلال والإكبار؟ هل تحمل في كيانك المســيح الحي- الإله- الكلمة-، الذي بسط لك هذه النعم، واختارك لتكون له رســـولاً وداعية!!

رفع أحدهم "الكلوسة" أو العمة من على رأس الكاهن بكل احترام وآخـــر ساعده في خلع العباءة قالوا له: استرح يا قدس أبونا، لسه بدري على الفـــرح، وسأل عم منقريوس الشماس صموئيل: أنتوا اتغديتوا ممكن تنتظروا العشـــاء، هنتأخر في الليل بعد الفرح، قال صموئيل وكان على عزة نفس واباء شديدين: الحمد لله، بس نشرب شاي، جلس صاحبنا الكاهن وشماسه على كراسي صفت في صحن الدار.

****

الزغاريد في نغمتها العتيقة، تراث فرعوني رائع، ولا تتقن جميع النســاء فن الزغرودة، بعضهن يطلقنها كصوت الناي أو كجرس دقاته منتظمة، لكـــن بعضهن تعيق الزغرودة حشرجة فتخرج في غير انسجام الطبـــل والرقـــص والتصفيق، مشهد لم يتوقف كما قيل منذ الأمس ليلة الحنة، ولفت نظر صاحبنا،

مشهد طفلة أغلب الظن أنها لم تبلغ العاشرة من عمرها. وضعوا على وسطها منديل، ربطوه بإحكام، قامت لترقص، صاح عم منقريوس:

عيب يا بت يا اسكندره، ترقصي قدام أبونا.. لم تخجل الطفلة واستمرت في رقصها، كما اتصل التصفيق والزغاريد ولم ينطق صاحبنا بكلمة بل ربما أعجبه مشهد الطفلة وقد أتقنت فن الرقص اتقاناً رائعاً، وتسائل صاحبنا بينه وبين نفسه، هل صحيح القول: إننا شعب راقص، يحب الرقص وفنونه وهو الذي أبدع هذا اللون من ألوان الفنون كما تشهد بذلك جدران المعابد وآثار الأجداد، وحين مضى به الزمان أدرك صاحبنا الكاهن، أن الرقص محبب إلى المصريين رجالاً ونساء، وأن الأطفال يرقصون في القرى والكفور، وأدرك أيضاً لماذا تزدحم أفلامنا المصرية بكل ألوان الرقص، وما العيب في ذلك ما دام الأمر لا يخرج عن إطار الحشمة، ويذكر صاحبنا عبارة وردت لأحد مؤرخي فن الرقص تقول: إنه ابتسامة الجسد.

****

التئم شمل العائلات حول منصة أقيمت في صحن الدار جلس فوقها جرجس العريس ودميانة وقد بدأ شاباً وسيماً لم يبلغ العشرين وهو ابن العم منقريوس، جلابيته ناصعة البياض، يضع على رأسه طاقية غزلتها يد حماته أم عوض فهي خالته أيضاً يضع حول عنقه شالاً من الحرير اليمني، فقد جلب جنودنا الذين أقاموا في اليمن أقمشة من الحرير اليمني، ووضع قدميه في حذاء جديد لامع. إنه عريس مصري لا شك في ذلك، وجهه فرعوني الملامح، أكرث الشعر.

أما العروس دميانة فلم تكن لها شهادة ميلاد، وانما استخرج لها والدها شهادة طبية بأنها بلغت عامها الخامس عشر وأنها صالحة للزواج، ارتجف الكاهن وتساءل هل تصلح هذه الشهادة، ومال عليّ شماسه قائلاً: ينفع الكلام دا؟

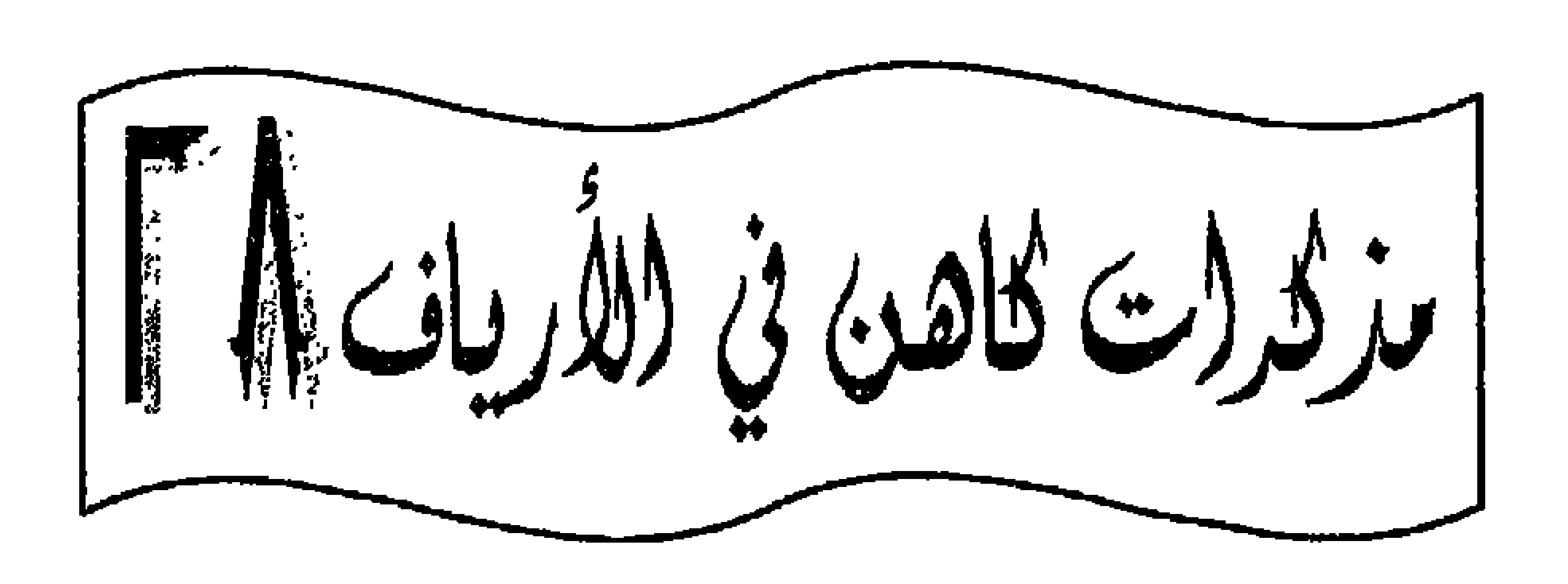
قال الشماس: كل الأرياف بتكلل بشهادة الدكتور، يعني نوقف العرس، وعرف الكاهن أن القرابة الدموية تحتاج إلى تصريح، لا يدري الناس عنه شيئاً، فالعروس ابنة خالته، سأل الكاهن هل يوجد تليفون قريب.، قالوا نعم، خير قال: بس اتصل بالمطرانية، ولحسن الحظ أو قل بستر من الله، وبنعمة المسيح كان المطران هو الذي رد عليه، وعرض صاحبنا الكاهن الأمر على رئيسه، فأعطاه تفسيحاً شفهياً وطلب أن يسجل ذلك على وثيقة الزواج..

****

رتل الشماس ومعه بعض أفراد العائلة، وكانت الفرحة غامرة وجه العروسين، رقص والده مع الرجال، غنت السيدات، أعدت مائدة ضخمة، ذبح جدي، اتخذ بعض الرجال مجلساً منفرداً ليحتسوا العرقي وليدخنوا الجوزة، كأن القرية بأجمعها شاركت هذا العرس..

لحق الكاهن وشماسه بأخر أتوبيس إلى بني مزار ليقضوا الليل في صحبة الراعي، وبكروا في اليوم التالي عائدين إلى بردنوها..

وقبل الختام انجب جرجس ودميانة ثلاثة أولاد وبنتين، هم الآن موظفون متزوجون، تفرقوا بين المنيا والقاهرة وبني مزار، ورحل عم منقريوس ولست أدري هل يزورهم الكاهن اليوم..



أنهمك صاحبنا الكاهن في الاستعداد لدخول امتحان الثانوية العامة، وهي شهادة الثقافة في ذلك الحين، أعاره صديقة جرانت كتباً كثيرة، كما أعانه أبناء المقدس ميلاد من قرية مجاورة، كانوا يستعدون أيضاً لهذا الامتحان، الشاب النابه سمير الذي أصبح اليوم مهندساً زراعياً مرموقاً، وأبنته عواطف التي أضحت جدة بعد أن حصلت على "الليسانس في اللغة الفرنسية" وماري وسيسيل وهما صيدليتان ناجحتان، وهذا حديث مضى عليه أربعون عاماً، وتبقى العلاقات الإنسانية محفورة في وجدان الإنسان، ومستقبل كل إنسان ينسجه بالعرق والجهد، وينبغي أن يظل دوماً وفياً لمن قدم له يد العون، وفي من نسج معه في مودة وحب هذا المستقبل، والإنسان في كثير من حياته نسيج من صنع الآخرين.

قدم صاحبنا الكاهن أوراقه واستمارات الامتحان إلى لجنة التعليم بالمعادي، فلم يكن له موضع قدم في القاهرة إلا في الدار الإكليريكية، رحب بذلك رئيسها خلال تلك الأعوام الأب اليسوعي "بريفو" ولم تزل صورة الرجل العظيم واضحة الملامح في أعماق صاحبنا الكاهن، لم يكن الأب بريفو إلا قدوة للراهب، جلال في الشخصية، هيبة وتقى في ملامحه، عمق وروحانية في فكره، صلابة وحزم في رؤياه، لم يتردد لحظة في استضافة الكاهن الشاب خلال أيام الامتحانات وقد تطول إلي أسبوعين، ووعده برسالة خطية بالفرنسية، بتحقيق حلمه، وأن الدار الإكليريكية ترحب به وأهم من ذلك كله، أشار بأنه سينزل ضيفاً دون أي تكاليف، فقط طلب منه أن يعد ذاته أعدادا جيداً للنجاح، ومما قاله في رسالته، ستكون في بيتك، ستعود إلي الدار التي عشت فيها سنوات من عمرك ستجد حياتك الروحية بين أخوتك الكهنة وزملاء المستقبل الشمامسة، وستكون قدوة لهم في السعي لمزيد من الثقافة لخدمة الإنجيل..

قرأ صاحبنا رسالة الأب بريفو، دمعت عيناه، وبخاصة عندما أشارت الرسالة إلي أن الأب "دي فونوي" وكيل الإكليريكية سيزور بردنوها قريباً لتشجيعه، لقد رحل الأب بريفو إلي موكب الأبرار ولكن روحه الطاهرة، وصفاء ذهنه، وبريق عمقه الروحي، صور لا تزال محفورة في أعماق كاهننا، أما الأب دي فونوي فهو لا يزال حياً يرزق، يعيش علي أرض الجزائر، ألمت به أمراض الشيخوخة، وهن صوته حتى صمت تماماً وأجريت له عملية ليستطيع التعبير بجهاز خاص، تخطى الثمانين ومازال شمعة مضيئة لمن حوله، كما ظل سنوات عديدة في الإكليريكية، حركة دائبة وطاقة لا تنفذ، أما الأب "فور" أطال الله عمره، فلقد كان مدبراً اقتصاديا للإكليريكية، لم يتوان في مساعدة صاحبنا الكاهن بكل رقة وعطف، وكان يدفعه دفعاً لمواصلة الدراسة في الجامعة، عشق هذا الرسول الغيور مصر عشقاً خالصاً، وضحى بحياته من أجل نهضة الكنيسة القبطية، وسمعت أن الطب أشار إليه أن صحته لا تنسجم إلا مع مناخ الصعيد...

* * * * * * * * *

لم يتقاعس صاحبنا الكاهن في الدراسة، أنضم إلي فئة القسم الأدبي أتقن المواد الدراسية أتقاناً تاماً ودفعه عشقه للغة العربية إلي حفظ الأشعار الكثيرة، وقرأ أغلب كتب الأدب في مكتبة الإكليريكية، وبخاصة سلسلة "أقرأ" التي تصدرها دار المعارف، ويكتبها كبار المفكرين، وبدت علاقة حميمة تتوطد بينه وبين طه حسين، يتابع معاركه الفكرية والأدبية، وتأثر أشد التأثر بكتابه "في الشعر الجاهلي" الذي طبق منهج ديكارت علي دراسة التراث العربي مما أثار عليه حملة شعواء وأتهم الرجل بالكفر والزندقة وما هو بكافر أو زنديق، وإنما هو عالم أراد أن يصل الفكر العربي بالنهضة الحضارية الغربية، وأحتفظ صاحبنا حتى اليوم بكتاب "الأيام" وهو سيرة الطفل الضرير طه حسين الذي أنار ببصيرته مسيرة أمته، ولكن صاحبنا أعرض عن كتب العقاد وكان بينها وبينه جفاء شديد، وقد كان لزاما عليه أن يقرأ كتاب "عبقرية عمر" فهو من الكتب المقررة على طلاب الثقافة، وكم لقي من عسر في فهم فكر العقاد وكم

كره أسلوبه المنمق الصعب، ولم يكن محببا إليه في الدراسة أمر أو مادة، أكثر من مادة التاريخ، فهو يعيش أحداثه ويلم بأسرار النفوس، وبالرغم عن إصرار ثورة جمال عبد الناصر على طمس تاريخ مصر، وعلى فرض دراسة الثورة الحديثة (سنة ١٩٥٢) على كل مراحل التعليم، ومحاولة غسل أدمغة الأجيال، إلا أن صاحبنا قرأ كثيرا عن أحوال الأقباط والكنيسة القبطية خلال العصور المتعاقبة، ويشهد صاحبنا أن المجتمع المصري في مراحل تطوره لم يتنكر لرسالة الكنيسة القبطية، التي أسهمت في كل حركات التحرر والنهضة بل شغل الأقباط المناصب العليا وكان لهم أكثر من ٢٧ نائبا في البرلمان، ولم يكن يدري صاحبنا أن البترول والثروات التي جلبها إلي البلاد العربية، أمر سيلعب دورا خطيرا في تبدل الحال، بل وفي تبدل الثقافة العربية، وفي انقلاب خطير في نمط الحياة العربية، وستلهي الثروات الضخمة أبناء الأمة العربية عن نهضة حقيقية وتتحول الأمة الخالدة إلى مجتمع استهلاكي مما سيؤثر على العلاقات بين شعوبها ومما سيلقي بظلال كثيفة حول العلاقات بين أفرادها، وكم نبه المفكرون وأهل الحكمة إلى خطورة تحول المجتمع العربي إلى سوق استهلاكي للغرب، فهل يعقل أن الأمية برغم الثراء الفاحش لا تزال تسود هذا المجتمع؟!

* * * * * * * * *

مضى صاحبنا الكاهن في استعداده، أعانته وحدته في القرية على الدرس والتحصيل، وفي الوقت ذاته راح يعقد اجتماع الأسبوع ليلقي فيه عظات حول إنجيل يوحنا، ولم يكن يزعجه إلا الذهاب للقرى المجاورة ليهتم بالعائلات الكاثوليكية المتناثرة التي لا يرعاها أحد، فتلك الزيارات كانت تأخذ من وقته أياما كثيرة، لكنها تمده بطاقة روحية متجددة، يسعد كثيرا حين يركب حماره متوجها حينا إلى قرية أبوان، وإلى قرية الكفور، وإلى قرى أخرى تاهت أسماؤها عن ذاكرته، وأغلب الظن أن لقاء العائلات الفقيرة والمؤمنة ظلت مصدرا من مصادر حياته الروحية.



ومضت شهور طويلة، وصاحبنا الكاهن. يجد مجتهداً في دراسة المواد الكثيرة استعداداً للامتحان، لم تكن الكهرباء قد غزت القرية، ووسيلة الإنارة "كلوب" في قلبه شعلة، يملأ بالبترول، يعده شماسة صموئيل قبيل الغروب ليظل موقداً طوال الليل، ويقضي معه الشماس شطراً كبيراً من الليل، ويعد له الشاي، كما يعد له العشاء، ويمنع عنه الراغبين في ضياع الوقت والرغي والتسلية.

كان صاحبنا قد اشترى "راديو" ترانزستور صغيراً في حجم كف اليد، ويذكر أنه اشتراه من محل في بني مزار بالتقسيط ليضع الراديو على بعد خطوات منه، يعشق البرنامج الموسيقى، يسمع الموسيقى الهادئة عن بعد، لا تحلو له مراجعة دروسه إلا على نغم موسيقى آت من بعيد، هادئ. رقيق، أغلب الظن أن الهدوء العميق الذي يسود ليل القرية حبب إلى قلبه الصمت والتأمل والتمسك بالجلوس وحيداً مع ذاته.

هدوء. ساحر، غامض، أشباح وأطياف تطوف القرية. هكذا يتخيل القرويون. فالفلاحون يعتقدون اعتقاداً راسخاً في وجود عالم الأشباح والعفاريت والجن، ويخافون أشد الخوف من أعمال السحر والشعوذة، ويعمق إحساس الخوف بعض رجال الدين، بقصد أو بغير قصد، ويؤمن الفلاحون إيماناً راسخاً بعالم الغيب. وبقدرات بعض البشر على استطلاع أسراره وخباياه، وعندما يغيب العلم، وتندر الثقافة، يسافر العقل في رحلة بعيدة عن الواقع، ويرحل المنطق، وتسود الخرافة، ومن ثم يحيا البشر في خوف متصل.

يخاف الفلاحون نهاراً، الحكومة والأغنياء وأصحاب النفوذ.. ويخاف الفلاحون ليلاً اللصوص والعفاريت وقوة السحر، ويخاف الفلاحون كوارث المستقبل ومصائب الزمان. والأمثلة العامية التي تشكل الوجدان الشعبي. والتي تشير إلى القلق من المستقبل كثيرة مثل.

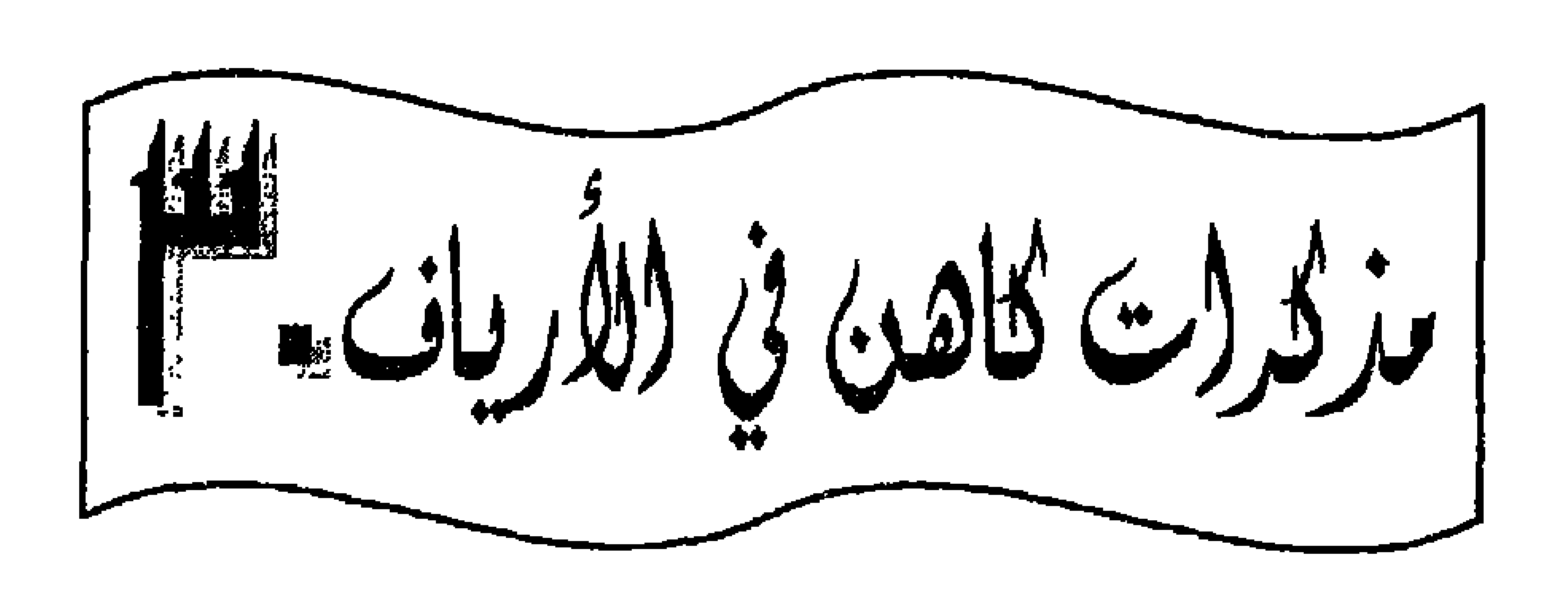
يكفيك شر المستخبي، القرش الأبيض (الذي تملكه) ينفع في اليوم الأسود (القادم). والزمان ما لوش أمان، يا قعدين يكفيكم شر الجايين الفلاح في القرية غير مطمئن على مستقبله ومستقبل أسرته، يخشى الحاكم واللص والغني ورجل الدين، يلجأ كثيراً إلى عالم الغيب، يهرب إلى الأسطورة لأن الحقيقة تؤلمه. إلى الخرافة لأن الواقع لا ينصفه إلى الأولياء والقديسين لأن أهل السلطة والدين لا يحترمونه والقرية عالم مختلف تماماً عن عالم المدينة. الفقر في القرية غالب على أهلها، وكان إذا أسدل ستار الليل على القرية، لا ترى إلا أطيافاً، ولا تسمع إلا همسات، ولا تلمس إلا ظلاماً دامساً، وأغلب الظن أن الحضارة لن تسود العالم الثالث إلا إذا انطلقت من القرية، ولن ينتصب العدل إلا إذا نال الفلاح حقوقه.

أكواخ تشبه الكهوف القديمة، تنبعث من شقوق الجدران أشعة باهتة لاهثة هي أشعة لمبات الجاز لا تصل رائحة طعام شهي، وإنما يمكن أن تميز رائحة العدس والفول والبصارة صيفاً وشتاء، قليلة هي البيوت التي تنبعث منها رائحة اللحوم.

أصوات الحيوانات تشق صوت الليل، نهيق الحمار، نباح الكلاب، وبين الحين والحين، صياح ديكه خدعها ضوء باهر فظنت أنه الفجر، بكاء الأطفال، وأحياناً صوت خفراء الزراعة يأتي من بعيد. ذلك كله يختلط في فضاء القرية، كما تختلط أحياناً أضواء القمر بأشباح الأشجار وتتوهج النجوم في أعماق الفضاء وكأنها عيون خالدة لا تموت، تراقب مسيرة البشر، وتشعر بأنين

الفقراء وآلام البؤساء، ينام الفلاحون في مشهد يصعب على أبناء العصر في العواصم والمدن أن يدركوا شدة حرارة الصيف وقيظة، وشدة برودة الشتاء. وهم ينامون على الحصيرة ومن حولهم الحشرات، كل ما يملكون هذه الحصيرة من تحتهم ولحاف اخترقه الزمن ومزق شمله القدم من فوقهم، ما أبئس لون الحوائط السوداء، وما أتعس الحياة تحت أسقف تحولت إلى جحور الفئران والأبرصة وإلى عشش للوطواط إنهم بشر، لا يزال صاحبنا يذكر بدقة، شدة البؤس وشظف الحياة، وقسوة الأيام، ومرارة العوز، ويقارن الحياة في القرية، التي لم تتغير كثيراً، ولم تخف حدة الأحزان يقارنها بما شهد في مدن أوروبا، وفي عواصم العالم، أي عالم هذا الذي نحيا فيه. وأي إنسانية تدعى أنها أسرة واحدة، أغلب الظن أنها إنسانية محتاجة إلى "المسيح" فهل يعود مرة أخرى، ليتجسد في مذود، لكي يحرم من حجر يسند عليه رأسه، ثم يقيم الموتى ويشفي المرضى ويشبع الجياع ويقتل!! أم إنه كلف كنيسته بأن تتجسد في العالم، إنه تجسد واحد، تجسد المسيح وتجسد كنيسته، وتجسد كل إنسان معمد، إن العالم في أشد الحاجة إلى تجسد دائم وفداء متصل.

يظل صاحبنا ساهراً، يقلب أمره حين يمل الدرس، وحين يجنح إلى بعض الراحة والهدوء، ينظر من النافذة المتهالكة إلى بهاء النجوم وجلال الليل، وينصت إلى آهات الإنسان المطحون، ويعد نفسه لكي يظل منتمياً إلى الفقراء وإلى البؤساء.



نزل شقيق صاحبنا الكاهن ضيفاً عليه في قريته، كان مدرساً للغة الفرنسية في إحدى المدارس الرسمية في أسيوط ونال شهرة واسعة وعرف باسم المسيو وهو من خريجي مدرسة "الجزويت" وإكليريكي سابقاً، أتقن الفرنسية أتقاناً مبهراً، ونجح في الحصول على ثقة الطلبة، وعاش في سعة وبحبوحة عيش، أستقبله صاحبنا بكل ترحاب فالكاهن يصغره بأكثر من عشر سنوات ويكن له احتراما عميقاً، ويعجب بثقافته الواسعة، ويذكر صاحبنا أن شقيقه لم يحمل معه "زيارة" من طعام أو من شراب وإنما أهداه كتابين لا يزال يحتفظ بهما حتى اليوم، كتاب ديكارت الفيلسوف الفرنسي وعنوانه "مقال في المنهج" باللغة الفرنسية، وترجمته إلى العربية وقد قام بها الدكتور عثمان أمين، وكتاب تاريخ الآداب الفرنسية وهو مقرر على الصفوف الثانوية في فرنسا.

يذكر صاحبنا أن شقيقه قضى يوماً ونصف يوم في القرية، أستقبله ناظر المدرسة الكاثوليكية باحترام شديد وقامت بينهما مناقشات حادة حول أهمية الثقافة في تطور المجتمع، كما بالغ الشماس صموئيل في الحفاوة به، ورغب الشقيق في زيارة حقل من حقول القريبة، وما أجمل الريف في شهر ديسمبر، يزرع الفول وينمو نباته شديد الخضرة، نبات متواضع لا يرتفع عن الأرض إلا عدة أشبار، الهواء بارد ولكنه لا يلسع الوجه، والشمس تشرق في ابتسامه مبهجة وعند الظهر تكون القرية قد أدفأتها أشعتها المتوهجة، وتستحم كل الكائنات في النور والحرارة، طاف صاحبنا الكاهن وشقيقه أرجاء القرية، شربا الشاي في دكان جورج وفؤاد، ألقيا نظرة سريعة على القبور المتناثرة؛

لم يفهم صاحبنا في بداية الأمر سبب زيارة شقيقه ظن أنها مودة ومحبة، أو قد تكون فضولاً لاكتشاف حياة كاهن في الأرياف، ولم يخطر على باله أن شقيقه إنما زاره ليطلب منه بعض المال.

جلسا وجها لوجه، كل منهما أتخذ كرسياً عتيقاً من الكراسي التي يقال عنها كراسي أسيوطية، وقد رص بعضها في صحن بيت الكاهن الذي أعد كحجرة جلوس، لم تكن "صالوناً" بالمعنى المعروف، ولم تكن على جمال أو ثراء، فليس على أرضها سجادة أو حصير وإنما أرضيتها من الخشب تشعر وأنت تسير فوقها كأنها تئن وتصدر أصواتاً تبدد وحشة المكان أعد لهما الشماس صموئيل الشاي وأنصرف، وساد الصمت لحظات طويلة قطعه صاحبنا الكاهن بهذا الحوار

أهلاً بالمسيو.. نورت القرية

لم أكن أعلم قبل اليوم بحال كنيسة القرية، لم أتصور هذا البؤس وهذا الشقاء، فقد تركت الإكليريكية بعد أن أنهيت الدراسة ونلت شهادة "البكالوريا" الفرنسية من مدرسة الجزويت بالفجالة، استلمت عملي كمترجم بشركة السكر بنجع حمادي،.ثم دخلت مسابقة أجرتها وزارة المعارف (التربية والتعليم) وفزت بالمرتبة الأولى وعينت مدرساً للغة الفرنسية بمدرسة ثانوية بأسيوط، في نجع حمادي كان كثيرون من الفرنسيين والإيطاليين أصحاب مراكز مرموقة في الشركة، اندمجت في مجتمعهم سنوات طويلة، نسيت قريتي وقطعت صلتي بعالم الفقراء والمطحونين، فقد عشت في مجتمع أوروبي في قلب نجع حماي ، حتى الكاهن الكاثوليكي كان إيطالياً، اعذرني يا أخي إن كنت تشعر بأنني غريب عن مجتمع القرية.

لا عليك يا مسيو، أنت تعيش حياتك، عتابي أنك لم تعط والديك وأخوتك التسعة عوناً ولم تأخذ بيد أحد

أنت كنت صغيراً حينما رفضت دعوتي الكهنوتية، شعرت بأنني لســت أهلاً لها، وقامت القيامة في البيت، وطردني والدي، اعتبرني كافراً بالنعمــة، فالأهل في الريف وفي الصعيد، يعتبرون الخروج من الدير لعنة من الســماء، ويظنون أن الغضب الإلهي سينزل دوماً على من يترك هــذا الطريــق، لقــد طردت، وشردت، وعشت وحيداً في نجــع حمــدي، فــهل كنــت تظــن أن باستطاعتي العودة إلى البيت؟ ولم تكن الحياة في الإكليريكية فردوساً.

لقد تعذبت والدتك لابتعادك وغربتك.

لكن الوالد وقد اعتبرني عاقاً متمرداً رفض وجودي في الأسرة.

والدك سلك بقدر ما أتيح له من فكر واعتقاد.

هل الخروج من الدير قبل الكهنوت أو قبل النذور، لعنة من السماء وإثـم ما بعده إثم.

رد كاهننا في شئ من الحدة: من قال هذا، الكهنوت رســالة، والـزواج رسالة أنه السر الأعظم، والتبتل كمال وسمو لا يقدر عليه كثيرون، إن في هذه القرية شباباً خرجوا من الإكليريكية الأستاذ جرانت، الأســتاذ بشــارة، أبنــه جورج، خرجت من الدير موقف الأسرة يختلف بقدر اختلاف عقول آبائهم مــا العيب.

قال المسيو: ما علينا، لا زالت عقلية الأهل في حاجة إلى تنوير قل لــي ماذا تقرأ في وحدتك؟

أنهيت منذ أيام كتاب اعترافات القديس أوغســطينوس، ولــدي كتــاب بالفرنسية عن الوجود، لراهب دومينيكي أسمه سرتلونج، فكر عميــق رائــع، لاهوتي متصوف تصور عظمة هذه العبارة في أولى صفحــات الكتــاب: الله يخلق الكون من جديد كل يوم، كل صباح يقول للوجود كن، يوقظ الكائنــات ، يبعث الحياة في النبات والطير..

قاطعه المسيو قائلاً: عندما تنتهي من قراءته ، اقــرأ كتــاب ديكــارت يقولون عنه أنه أرسطو الفلسفة الحديثة، كان الكتاب من شــهرته يبــاع مــع الخبز، يقبل عليه الناس كما يقبلون على الخبز، قال الأسقف الفرنسي بوســيه عن ديكارت: أنه كاثوليكي أصيل لكنه وضع المبادئ والمنهج وقدم وسائل هدم عالم الميتافزيقا لقد رفض ديكارت كل ما يرفضه العقل ولا يقبله المنطق غـير أنه استثنى شؤون الإيمان وقال أن العقائد لا تخضع لمنطق العلوم ومع ذلــك سادت فلسفته العقلانية ولا تزال تحرك الفكر الإنساني.

إلى هذا الحد خطر الكتاب؟

عندما تقرأه تكتب لي عن رأيك فيه

سادت لحظة صمت، نظر الكاهن من النافذة، راقب فلاحة عن بعد، تجمع بيض فراخها من العشة فوق سطح منزل قريب لم ينصت لصوت روماني بائع الترمس، جاشت في أعماقه ذكريات الطفولة وطاف بخيالــه يــوم المعركــة الكبرى حين طرد أخوه من البيت بعد أن ترك الإكليريكية وفجأة قال المسيو:

جئتك أطلب قرضاً، أنا في حاجة إلى خمسين جنيهاً؟

نزلت الكلمات كالصاعقة على رأس صاحبنا الكاهن وقال في دهشة أنت المسيو المشهور تطلب إعانة كاهن في الأرياف، هل تطلب أمريكا المســاعدة من دولة مالي أو موريتانيا.

ضحك المسيو ضحكة طويلة، وقال: لست أمريكا، ولست أنــت دولــة فقيرة، وإنما أنت كاهن لا تحمل مسؤوليات الحياة، لست في حاجة إلى ملابس غالية أو إلى مال لزوجة أو أطفال، أنا لم أعرف كاهنا معوزاً ..

أنا كاهن في قرية.

قاطعة المسيو: أنت تعيش مجاناً من خيرات القرية.

أو تظن أن سبعة جنيهات تكفي...

دعك من كل هذا، أنا في حاجة إلى هذا المبلغ، إن كان عندك فأعطني على أن أرده حين ميسرة، وإن لم يكن لديك شيء، فيكفيني لقاؤك الحار وترحيبك الصادق.

دعني أفكر حتى الصباح.

يذكر صاحبنا أنه أعطى شقيقه نصف المبلغ المطلوب، وبعد أن ودعه في صباح اليوم التالي عاد إلى حجرته، جلس وحيداً، شارداً، تمزقه أحاسيس متناقضة، وأفكار متصارعة، لماذا يتصور الأهل أن الكاهن غني! لماذا يستبيحون ما لا يحق وما لا يصح، كيف يتحرر الكاهن من قيود الأهل والأقارب، يا إلهي، ما أصعب هذه المواقف، أين الحقيقة وأين الباطل؟ ويذكر صاحبنا أنه أتخذ قراراً، لازال بعد أربعين سنة وفياً لهذا القرار، مخلصاً في تنفيذه: ألا يكون أسيراً للعائلة، ألا تطحنه قضايا عائلته إلا بقدر لا يمس حريته ككاهن، ألا ينسى أبداً أنه أرسل لجميع الناس، أنه صورة المسيح، وأخوة المسيح هم الذين يعملون إرادة الله.



أين هم الآن بعد أربعين سنة خلت، أولاد العمدة القبطي، أرنست، وسميون، لهما شقيق ثالث عمل في السلك الدبلوماسي؟ عائلة العمدة في بردنوها أشهر من نار على علم في ذلك الزمان، امتلكت مئات الأفدنة، والإقطاعيات، كان لها قصر منيف على أطراف القرية، ولها أكثر من "فيلا" في مصر الجديدة، الأولاد الثلاثة بلا استثناءهم خريجو مدرسة الجزويت، ولهم ابن عم هو كامل بك يعيش في بني مزار، يرعى مصالحهم، ويشرف على شئون الأرض والمناحل، يعمل لديهم عشرات من الفلاحين، من المسلمين والمسيحيين، أنهم باشوات القرية، أقاموا كنيسة القرية، تحفة معمارية لعلها من أجمل كنائس مصر، لازالت جوهرة بردنوها، جلبوا مهندساً إيطالياً، أقام في قصرهم سنوات ثلاثاً، أبدع في هندسة الكنيسة، أبدع في رسم الأيقونات، ترى بأية حال أيتها الكنيسة الدرة الثمينة وسط الحطام والأكواخ والعشش.

اعتادت القرية أن تحتفل بالأعياد المسيحية والإسلامية، بزيارة أولاد العمدة في قصرهم، للتهنئة، يذهب رجال الدين لينالوا بعض العطايا، وكانت عطاياهم كالنهر المتدفق في سخاء.

قيل لصاحبنا الكاهن من الواجب أن يمضي على خطي الكهنة السابقين له فيذهب للتهنئة ولنوال العطايا، أنهم أسياد بلا منازع، وبرغم ثرائهم الضخم، فهم أهل تواضع وبساطة نفس، يحترمون الجميع، وهم دوماً في ترفع ونبل.

تردد صاحبنا طويلاً، فليس من صفاته التملق والنفاق، ويجرحه أشد الجرح أن يبدو الكاهن ذليلاً أمام الأغنياء، متسولاً من أهل البحبوحة والثراء وقال لشماسه في حدة: لست محتاجاً لشيء، هذه عادة سخيفة، وتقليد أحمق، أن يذهب رجال الدين وكأنهم متسولون...

أجاب الشماس: يا قدس أبونا. العظمة لله. دول ناس كمل. عمرهـــم مـــا جرحوا حد. دول أشراف القرية. وأنت بتعمل واجب باسم الكنيســـة. تواضـــع شوية. هم عاملين حصة من القمح لعمل القربان، وحصة من المال لمســـاعدة الكاهن، وحصة أخرى لإصلاح المدرسة والكنيسة، يعني بنروح نؤدي واجـب الشكر لا أكثر ولا أقل. ثم أنت عارف يا قدس أبونا ربنا هو اللي خلق الغنـــي وخلق الفقير. أنت عايز الدنيا تبقى كلها أغنياء أو كلها فقـــراء مـــا تمشـــيش. عديها يا قدس أبونا.

قال صاحبنا الكاهن في سؤال ساذج هل تأثر أولاد العمدة بقرارات جمال عبد الناصر للإصلاح الزراعي؟ هل أخذت منهم أرضهم.

قال صموئيل في ثقة: دول ناس عقلة. عرفوا خير تأميم الأراضي قبلـــها بمدة. وزعوا الأراضي على الزوجات والأطفال، احتفظوا بإقطاعيات كبـــيرة. لكن برضه الإصلاح الزراعي أخذ منهم مئات الأفدنة والحمد لله. لـــم يـــأخذ المناحل أو وابور الطحين ولا الجرارات.

استعد صاحبنا الكاهن لزيارة أولاد في قصرهم وهم على بعـــد عشـــرين دقيقة سيراً على الأقدام، اصطحب معه ناظر المدرسة الأستاذ أنطون جوهـــر، وكان ذكياً، لبقاً، أنيقاً يضع طربوشه مائلاً على جبهته، ويمســـك عصـــا مـــن الأبنوس أهديت له من الذين حاربوا في اليمن، ولا يرضي أبداً أن يضع قدميه في حذاء غير لامع يحدث صفيراً أثناء السير. واصطحـــب أيضـــاً الشـــماس صموئيل، وعم ميخائيل والد الأستاذ جرانت، أنه وفد الكنيسة الكاثوليكية الـــذي يمثلها في هذه المناسبة.

على باب القصر خفيران مدججان بالسلاح، بزي الخفـــراء الحكوميـــين الطربوش الطويل الذي يشبه القرطاس، الشارة السوداء بطول الطربوش فـــوق الجبهة، البلطوا الأصفر ذو الجيوب الواسعة، والذي يصل إلى القدمين، الحذاء "الميري" الذي يصرف للخفير وهو ضخم له رقبة طويلة، رحـــب الخفـــيران بالوفد، فرفعا الأيدي تحية وإجلالاً، دخل الوفد القصر وقد أعد الصالون الكبير

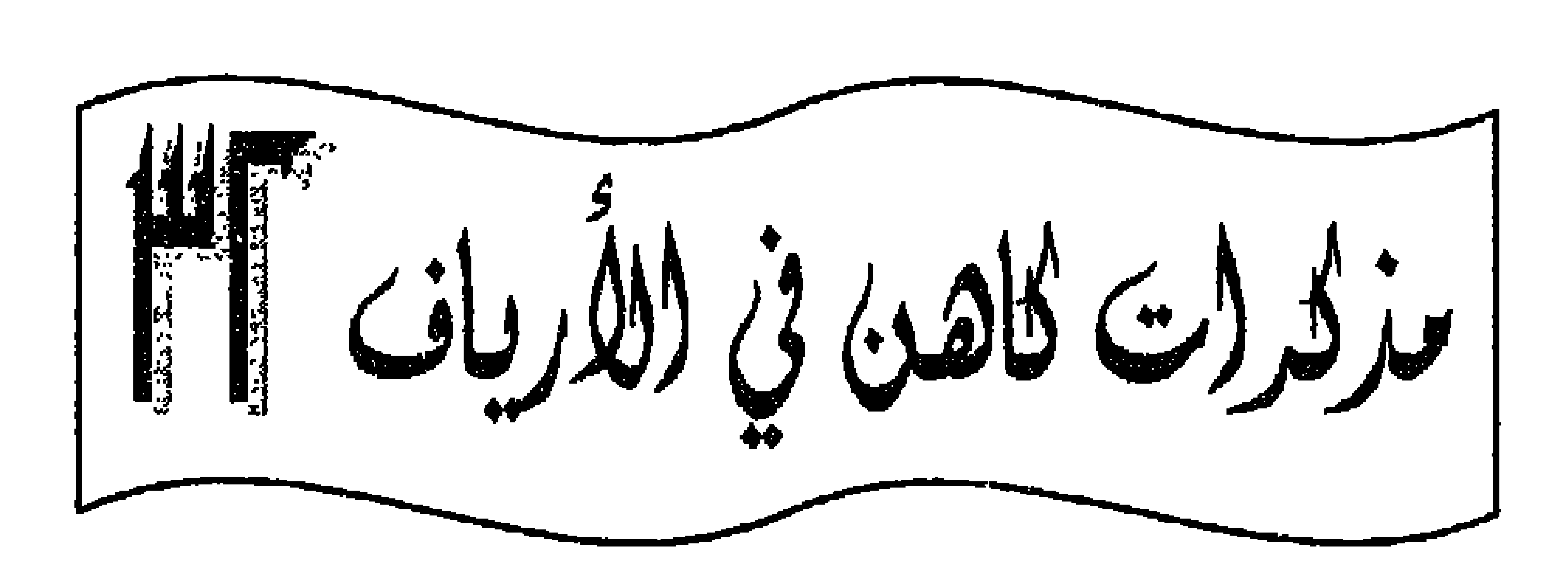
لأستقبال الوفود أما القصر فتحفة فنية، بنى على الطراز الفرنسي، أعمدته شامخة من الرخام الأسود اللامع، أرضيته قد فرشت بسجاد تغوص الأقدام فيه، تتصدر الصالون صورة ضخمة للعمدة الوالد "الباشا" بزي الباشوية وعلى صدره نياشين كثيرة، الجالسون أعيان القرية، قدم لهم خدم "الشربات" والخدم يلبسون الجلابية البيضاء ذات الأزرار الفضية، يتمنطقون بحزام أحمر، وعلى رؤسهم طرابيش نظيفة جديدة، أنهم أشبه "بجرسونات" الفنادق الكبرى، ولعلعهم معارون منهم. صورة جمال عبد الناصر معلقة على إحدى الحوائط، وهي الصورة التي توزعها وزارة الإرشاد القومي (الإعلام) علق صليب من العاج أغلب الظن أنه من القدس وتحت الصليب صورة متوسطة الطول والعرض للبابا كيرلس في أقصى الحجرة على طاولة دقيقة الصنع من خشب الأبنوس أنتصب تمثال للعذراء البتول يبدو أنه من تحف مدينة روما، ووضع الكتاب بعهديه القديم والجديد في حافظة من جلد الغزال وحجمه ككتب القواميس الضخمة، وفي زاوية من زوايا الحجرة مكتبة صغيرة من ثلاثة أرفف رصت عليها كتب استطاع صاحبنا الكاهن أن يقرأ بعض عناوينها، القاموس الفرنسي لاروس، تاريخ مصر لمصطفى الرافعي، تاريخ الكنيسة القبطية لأحد المستشرقين، تاريخ أديرة وادي النطرون للأمير طوسون، ولفت نظر صاحبنا الكاهن كتاب في حجم كف اليد، دفعه الفضول إلى الاقتراب من المكتبة لمعرفة عنوانه فإذا هو كتاب كليلة ودمنة لأبن المقفع.

شرب الحاضرون ما قدم لهم من "شربات" تقول الذاكرة أنها شربات "منجة" صبت في أكواب نظيفة، مذهبة الأطراف، ثم القهوة في فناجين من الصيني عليها رسم روميو وجيولت، لم يتلفت صاحبنا الكاهن إلى الجالسين وقد انهمكوا في الحديث عن السياسة وعن التأميم، وعن أفول عصر الباشوات، وتحسر بعضهم على زمن بدا غروبه واضحا جليا، وذكروا كيف أستقبل باشوات المنيا وكانت منطقة مشهورة بطبقة من الأثرياء، وعرفت الإقطاع، كيف استقبلوا القرارات بمرارة فقد قلبت هرم المجتمع، تحمس لها الفقراء والمعدمون، وخاف منها الأغنياء والموسرون، وكان موقف رجال الدين صعبا، لا يدرون إلى من ينحازون، إلى عبد الناصر وثورته، أم إلى الذين أضيروا في ثرواتهم وارثهم..

لم يستغرق لقاء أولاد العمدة بالوفود إلا دقائق معدومة، احتضنوا المنتظرين، واحداً واحداً، يعرفونهم بأسمائهم، يلقون تعليقات طريفة على الزراعة والفلاحين، لم يتطرقوا إلى قرارات الإصلاح الزراعي بأي عبارة، والذي لا شك فيه، أنهم أضيروا منه ضرراً كبيراً وزعوا العطايا على رجال الدين وكان نصيب صاحبنا مائة جنيه، هي المئة الأولى التي تلمسها يداه وهو مبلغ يعادل ألف جنيه في مفهوم اليوم، خرجت الوفود، وكان صاحبنا في حيرة شديدة أمام أمرين: الأمر الأول ماذا سيفعل بهذا الثراء الضخم الذي نزل عليه فجأة وهل أعطى له كهبة وهدية لشخصه أم قدم لخير الكنيسة وشعبها وظل ساهما، وسارحاً، يتحسس بين الحين والحين جيبه وشعر بدفء وألح عليه السؤال: الكاهن والمال ما هي العلاقة بينهما؟ علاقة عشق وهوى، أم علاقة رسالة وواجب؟ وأغلب الظن أن السؤال لم يزل يلح إلحاحاً شديداً حتى اليوم، ولكن العمر الفائت قد علمه أن المال يفقد سلطانه وسطوته إن امتلأت الروح بالقناعة وبسر المسيح الذي أخلى ذاته، لقد أنقذه شماسه صموئيل من حيرته حين قال له: يا قدس أبونا ما تنساش الست زاهية، الأرمل العجوز، ليس لها ولد أو معين وهي في حاجة لشراء معزتين لتكونا لها مصدر رزق فلم يفتح صاحبنا فمه بكلمة وإنما قال لضميره: أسترح لقد حلت عقدة المائة جنيه، معزتان ثمنهما في ذلك الحين ستون جنيهاً، وستبقى لك أربعون جنيهاً، وفضل ونعمة من المسيح

الأمر الثاني الذي حيره ولازال في حيرته، هو هل يظل الكاهن دوماً في حال استجداء للمال، ونفاق للأغنياء، متى يتحرر ليكون كلاً للكل، هل يظل رازحاً تحت حدة العطش للمال؟ ولماذا؟ ولمن؟ هل هي عقدة نفسية بين الكاهن وبين المال؟

وصل إلى داره. ألقى بجسده على الكنبة. سرح بخاطره. أجبر على عمل مقارنة بين ما رآه في القصر، وبين عشة عم منقريوس، بين حياة القصور وحياة الأكواخ وخرجت من أعماق صرخة: يا يسوع أحمني من الثراء. كن عوني لأظل دوماً منتمياً للفقراء والبسطاء.



لست أدري لماذا لا يحتفل أهل القرى بعيد الميلاد احتفالاً ضخماً وإنما يمر هذا العيد مر الكرام يكاد أن يخلو من المباهج الخارجية، فليست له مأكولات خاصة، وليست له طقوس زاهية كعيد القيامة، وأغلب الظن أن الكنيسة القبطية وقد عرفت بعمق لاهوتها كرست اهتماما خاصاً بالأعياد السيدية الكبرى وعيد الميلاد تعتبره من الأعياد السيدية الصغرى، ذلك لأنها تحتفل بعيد الغطاس وهو من الأعياد الكبرى احتفالاً مهيباً، ويدعى عيد الظهور الإلهي، نظرة الكنيسة إلي سر ظهور الثالوث المقدس في عيد الغطاس هو محور العقيدة المسيحية حيث سمع صوت الآب يجلجل فضاء نهر الأردن: هذا هو أبني الحبيب الذي به سررت، وظهر روح القدس على صورة حمامة، هنا سر المسيحية، السر الأعظم، جوهرة العلم اللاهوتي، ولؤلؤة الإيمان، لقد فطن العقل الإنساني إلي "وحدانية الله" وصل إليها إخناتون العظيم وكتبها بالحجر والرخام، تحدى بهذه العقيدة عواصف الزمن وتقلبات الدهور ولا زالت عبارته الخالدة على أعمدة معبده في تل العمارنة (ملوي) تتردد من آلاف السنين، كأنها صلاة الإنسان للخالق الواحد، لا إله إلا أنت أيها الخالق الحكيم، أيها النور السرمدي، قرأها ملايين السائحين وسوف يقرؤها الملايين على مر العصور، شهادة بأن المصري يحمل عبقرية الروح، وقد نسج حضارته بخيوط الورع والتدين، علم الإيمان بالله الواحد، كل الإنسانية ومنها تعلم أرسطو حين قدم إلي مصر مع تلميذه الإسكندر الأكبر وكتب الملك المقدوني إلي أمه رسالة (لا تزال في متحف لندن) يخبرها بأنه وأستاذه ، اكتشفا السر الأعظم في مصر، لم يمهله الموت ليعلنه ويفرض العقيدة على البشرية كلها.

* * * * * * * * * * *

لذلك شعرت الكنيسة القبطية، معلمة الكنائس المسيحية خلال القرون الأولى بعد مولد المسيح له المجد، ومؤسسة لاهوت الثالوث، العقيدة التي لم

يكن في قدرة العقل أن يقترب منها أو أن يدرك سموها، وحده الكائن في حضن الآب المنبثق أو المولود من الذات الإلهي، والقائم دوماً في الذات الإلهي وحده المسيح أخذ العقل البشري إلي آفاق الحياة الإلهية، وأنار له الطريق للتأمل في سر الله، الواحد، الأحد، المثلث الإقانيم، الله الواحد هو:

١ حياة، وخلق، وحركة، وعطاء، وعناية (الآب).

٢ الله نور، وعلم، وحكمة، وعقل (الله الابن).

٣ الله حب، وحنان، ورحمة (الله روح القدس).

أنت الإله الواحد، الآب، الخالق القدوس

أنت الإله الواحد، الابن، المخلص، النور، الكلمة القدوس

أنت الإله الواحد، الروح القدس، المحبة والحكمة والقدوس

واحد يا إلهي، أسجد لك وأحبك في ذاتك الإلهية

في أقانيمك الثلاثة، وأقول مع القديس اغريغوريوس:

أيها الإله الواحد، الثالوث، أنت فرحي ورجائي

* * * * * * * * * *

يحيط بعيد الغطاس طقوس رائعة، فصلاة اللقان وبركة المياه تعيد للذهن المسيحي مسيرة الخلاص، والخلق، وعبور البحر الأحمر، ومعمودية المسيح بيد يوحنا المعمدان، ولهذا العيد ألحان خاصة، أنه لا يقل مهابة ومكانة في الطقوس القبطية عن عيد القيامة.

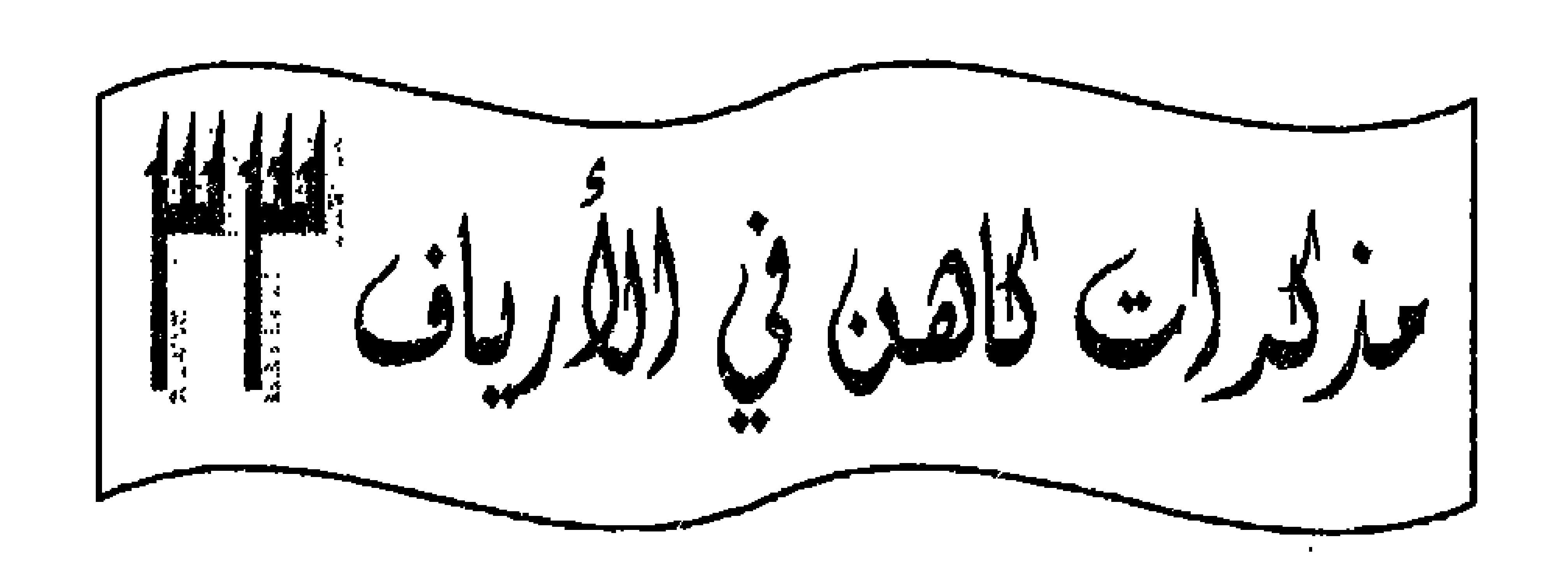
يحمل القرويون قلل الماء، والأباريق، للتبرك، كما يحتفظون بها طوال العام، بعد أن تقام صلاة "اللقان" أو صلاة تبريك المياه؛

لا يتوانى صاحبنا الكاهن عن زيارة الرعية، منزلاً، منزلاً، يرش البيوت بالمياه المباركة، وللماء علاقة حميمة بالطقوس المسيحية ومذ أن أخرج المسيح الشياطين من الذين أسرت أرواحهم وألقيت الشياطين في المياه والقرويون لا

يحبذون كثيراً النظر في الآبار أو السواقي أو البرك وهناك خرافة تقول أن الشياطين قد تسكنها ولعل هذه الخرافة قد رحلت ، على كل حال للماء دور في كل الطقوس الدينية ، ولها رموز في كل الأديان...

تمضي الأيام بصاحبنا الكاهن، يتعلم من القرية أموراً كثيرة، يكتشف معنى القناعة والرضا من أهلها البسطاء، يلمس عمق الإيمان في وجدان القبطي، ترحل به السنوات الطوال، ويدرك مع تقدم العمر أن الطقوس القبطية مدرسة اللاهوت للبسطاء، قد تبدو طويلة مرهقة بالنسبة لأبناء هذا العصر، ولكن ننسى أنها هي التي زرعت جذور الإيمان في وجدان المجتمع الأمي، وفي قلوب الفلاحين، وقد أدرك ذلك الأمر لاهوتيون في الكنيسة البروتستنتية وشعروا بأهمية الطقوس التي أسقطت ونادوا بالعودة إليها، وبالسعي إلي إحياء بعض الطقوس في العبادة لا ينبغي أبداً العبث بالطقوس وإن كانت هناك ضرورة لتطويرها فالحرص واجب ودراسة معانيها ورموزها فرض ولا تغيير فيها إلا بالمجمع المقدس أو السنودس.

تعلم صاحبنا الكاهن أن بداية ضياع الإيمان في إهمال الطقوس، وعدم إدراك رموزها ودلالاتها اللاهوتية أو في العبث بها وتبديلها دون حكمة أو تقي، بل أنه يسمع اليوم كثيراً من الحديث حول معنى هذه الطقوس وبرغم تغلغل حضارة العصر، ومجتمع الاستهلاك والتكالب على المتع، فإن قلوباً كثيرة لا زالت تعشق طقوس الكنيسة، الحذر كل الحذر من التهاون في احترامها، والتكاسل في أدائها، والجهل بمعانيها، لقد أدرك صاحبنا الكاهن إدراكا عميقاً أن الطقوس هي الحاضنة المخلصة الأمينة للعقائد والإيمان، أنها مدرسة للإيمان.



"أبو قرنفيل" بفتح الراء وسكون النون، لقب أطلق على ولد من أولاد الرعية، للسخرية حيناً وللعبث حيناً، لست أدري من أطلقه عليه، وما معنى الاسم، كل ما أدركه صاحبنا الكاهن أن "مسعد" ولد في ليلة من ليالي الشتاء القارس، وماتت أمه بعد ولادته مباشرة، فكفلته عمته، وأسمته "مسعداً" برغم أن فجر حياته لا يمت إلى السعادة بشيء.

كان في الخامسة عشرة من عمره حين جاء صاحبنا الكاهن إلي القرية، صبياً أسمر اللون، واسع العينين، كبير الأذنين، شعره أجعد، قامته متوسطة الطول، ممتلئ الجسد، قوي البنية، لم يدخل المدرسة وأين له بمن يرسله إلى المدرسة، ووالده يعمل خفيراً حكومياً يتقاضى أربعة جنيهات كل شهر، تعلم بعض العلم من مدارس الأحد، عرف أنه مسيحي، يؤمن بأن المسيح هو الله الذي صار إنساناً من أجلنا، وأن الله أحبنا، ألم إلماماً ضعيفاً بالإيمان المسيحي، لم يكن يعرف هدفه من الحياة أو هدف الحياة من وجوده، ومن وجود أمثاله من اليتامى والمهملين والمعوزين.

يبكر صباحاً، يذهب إلي الحقول، يلتقط رزقه من عمله مع أصحابه، لا يعطونه مالاً بل مما تجود به الأرض، يعود إلي بيته مع غروب الشمس، يأتي إلي صاحبنا الكاهن، يلتمس عنده بعض الخير، نظير خدمات يؤديها، ذكاء حاد يبدو في عيني "أبو قرنفيل" لم يتعلم مهنة نشأ عشوائياً، يساعد من يطلب المساعدة، خفيف الظل، حاضر النكتة، أتقن "أبانا الذي" بعد جهد مضني، لا يعرف من الصلاة غيرها، لا يحقد على أحد، لا يحسد أحداً، لا يتسول، تأخذه

العزة والكرامة إن لم ينل حقه بعد عمل أداه، أنه صبي لكنه يحمل في ذاته مأساة الطفل المصري الفلاح اليتيم.

تحتفظ الذاكرة بهذا الحديث، وقد كتبه صاحبنا منذ أربعين سنة على ورق يحتفظ به، ولعل "أبو قرنفيل" وهو الآن المعلم أبو قرنفيل يذكر الحوار. جاء ذات مساء بعد عودته من الحقل إلي صاحبنا الكاهن الذي يعطف عليه ويغدق عليه بعض العون، طلب أن يجلس معه بعض الوقت، لبى الكاهن التماسه، جلس في مواجهة الكاهن وبدأ الحديث:

أنا مكسوف قوي يا قدس أبونا.

عيب تقول الكلام دا. أنا بالنسبة ليك أب. قول كل حاجة بصراحة.

نفسي أعمل حاجة آكل منها عيش. الناس بتحسن لي علشان يتيم لكن أنا عايز يكون لي حاجة.

حاجة زي أيه.

بس ما تزعلش مني يا قدس أبونا.

عمري ما ازعل من أولادي.

نفسي أشتري عربية كارو وأشتغل عليها. بس أنا هسدد فلوسها. يعني سلف مش شحاته. عربية بحمار. أبقى صاحب عربية كارو.

طيب نحسبها يا أبو قرنفيل. الحمار تمنه مائة جنيه والعربية كمان مائة. يعني أنت محتاج لمائتين جنيه مش كده.

هو كده. وأنا مستعد أرجع نص اللي أكسبه كل يوم. يعني العربية بتعمل في اليوم بين عشرة و ١٥ جنيها. خد مني كل يوم خمسة جنيه. خد علي ورقة أو كمبيالة .بس حقق لي رغبتي.

صمت الكاهن. طلب من الصبي أن يقوم بأعداد الشاي، قام وترك الكاهن وحيداً، دخل الكاهن حجرة نومه، بكى بكاءاً حاراً تذكر زيارة القصر وترف

الأغنياء، وأمامه شاب كل أمنياته مائتان من الجنيهات، ظل واجماً، صامتاً حتى ناداه الصبي. الشاي يا قدس أبونا، خرج إليه، جلس في مكانه صامتاً حزيناً. بادره الشاب: تكون قدسك زعلت أنا طلبت من عشمي. أنا عارف أنك تقدر عن طريق عائلتك في مصر. أو عن طريق الناس الكبارات اللي بتعرفهم لكن لو مفيش خلاص. أنت زعلت ليه.

قال الكاهن: أنا مش زعلان يا أبو قرنفيل. أنا بأفكر.

بتفكر في المائتي جنيه. دول هيرجعوا. دي سلفة.

قولي هتعرف تشغل العربية؟

أنا عربجي متمرس. طول النهار بركب حمير وأسوقها، وأحمل عربيات ناس أنا عندي فكرة.

ها تشتغل فين؟

في بلدنا. في بردنوها. ها شيل محاصيل. وتراب. وطوب، وقطن، وقش، أشيل كل حاجة أقل مشوار فيه جوز جنيهات. لما أعمل خمس مشاوير آدي عشرة جنيه.

هتكفي العشرة مصاريفك!

ياه! هو أنا لاقي نصهم. أنا والحمار مش هناكل بأكثر من ثلاثة جنيه في اليوم. وأوعدك يا قدس أبونا هاحط على العربية صورة المسيح راكب حمار يوم أحد الشعانين. أيه رأيك في الفكرة دي.

لم ينم صاحبنا الكاهن ليلته. ظل أرقاً يردد بيت المتنبي:

أرق على أرق ومثلي يا أرق.

وجوى يزيد وعبرة تترقرق.

كان أرق أبي الطيب المتنبي مبعثه الهوى والعشق، أما أرق صاحبنا فكان ألماً وأنيناً لما يراه من بؤس ومن شقاء ومن ضنك، هؤلاء الناس أمانة في أيدينا، هذا الجيل الصاعد رسالة وحتى لا يطول الحديث، يذكر صاحبنا أن "أبو

قرنفيل" كان له عربية كارو، وأنه وفى بوعده وسدد نصف ثمنها ورفض الكاهن أن يحصل على المائة الثانية وقال له: أحتفظ بالمبلغ، يمكن تفكر في الزواج.

بعد أربعين سنة. يمتلك أبو قرنفيل سيارة نقل، تزوج وله أولاد وبنات، يمتلك بيتاً، يعرفه الجميع بلقب المعلم أبو قرنفيل. ولم يزل حتى اليوم مواظباً على الصلاة وعلى الأصوام وأهم ما في الأمر أنه مشهود له في القرية بأنه "أبو الأيتام" يحمل قلباً يتدفق حناناً ورحمة على الفقراء. وتمضي الأيام.



بائع متجول يدعى روماني، لا يمتلك إلا عربة يد صغيرة، يرص فوقها عدة قلل ممتلئة بالماء، يبيع "الترمس" ولا أعرف هل ينسب الترمس إلى البقول أو الخضراوات، يضعه في غربال واسع، كما يضع بجانبه صينية من الصفيح يرص عليها الحمص، ينادي روماني: ترمس وحمص عال العال، يجول في حواري القرية لا يمل، لم يبلغ الثلاثين من عمره، جسده مفتول العضلات، مرتفع القامة، قوي البنية، صعيدي الملامح فقد ترك شاربا ضخماً ينمو تحت أنفيه، عيناه العسليتان تبرقان بذكاء حاد، ولعل أهم سماته، أنه خفيف الدم، تجده دوماً قانعاً، راضياً، مبتسماً، لم يغير جلبابه منذ سنوات حتى بهت لونه الأزرق، فلم يعد أزرقاً وإنما اختلطت فيه الألوان، لون التراب وقد أختلط بالعرق وقد كشف عن "صديري" نفذت منه شعيرات كثيفة، لا يقرأ ولا يكتب إذ أنه لم يذهب إلى المدرسة قط فقد مات أبوه ولم يبلغ الخامسة من عمره، فكفلته أمه وبقى أبنها الوحيد، يسكن معها حجرة ضيقة بناها أبوه على أطراف القرية، قيل أنها أرض لا يمتلكها أحد وإنما تتبع الحكومة، وداخلة في التنظيم وسوف يقام شارع في تلك المنطقة يضم هذه الأرض، ولكن والد روماني أقام الحجرة لأنه يعرف أن بال الحكومة طويل جداً وساعة الله يعين الله، ومضت سنوات دون أن يزعجه أحد، ودون أن يقام الشارع ودون أن تتنبه الحكومة، وتربى روماني في هذه الحجرة، وبرغم حقارتها فلها موقع فريد فمن حولها تنبسط الحقول الخضراء، تستقبل الشمس عند بزوغها وتحتضن أشعة القمر في ليالي اكتماله، وتحيط بها السواقي تنشد أنشودة الحياة، وتمرح الأغنام في

أمان، وأتيح لأم روماني بعد أن رحل زوجها الفلاح وانقطعت بعده موارد الرزق فقد عاش أجيراً يعمل "باليومية" وكان أجره في ذلك الوقت أربعة جنيهات، أتيح للأم أن تنشئ عشه للفراخ والأرانب وأن تتحايل على الزمن فتزرع البصل، والجرجير والطماطم، يتساهل معها أصحاب الأرض حبا ورضا واحتسابا عند الله، كما يرون فيها وفي أبنها حرساً بدون أجر لمحاصيل حقولهم.

****

نعود إلى الشاب روماني ، ونذ أعتاد أن يمر بباب الكنيسة، وينادي بصوت عال: يا قدس أبونا الترمس طازج النهاردا عاوز بقك، ولا يتردد صاحبنا الكاهن أن يحقق رغبته، يصعد روماني إليه حاملاً قرطاساً به الترمس ويضع الكاهن في يده خمسة قروش. هي في ذلك الوقت مبلغ محترم.

لفت نظر صاحبنا الكاهن صور للبابا كيرلس، متوسطة الحجم ثلاثون في عشرين سنتيمتراً، وضعها روماني في إطار خشبي ثم أقامها فوق العربة وتسندها بعض قلل الماء.

سأل صاحبنا الكاهن: روماني هل تقرأ أو تكتب.

قال عمري ما رحت المدرسة.

هل تحب البابا كيرلس.

طبعاً دا البابا بتاعنا، كله بركة، دنا بأشتري أي حاجة عليها صورته، أنا متعلق به قوي.

هل تعرف ما هو مكتوب على طرف الصورة.

قالوا لي مكتوب اسم البابا: بابا الإسكندرية والكرازة المرقسية- قال العبارة في شئ من الفخر والاعتزاز، شفت يا قدس أبونا بس بصراحة حتتة الكرازة المرقسية دي مش فاهمها- أشرحها لي.

معناها كل بلد بشر فيها القديس مرقس، كرازة يعني نشر الإنجيل.

وغمرت سعادة واضحة وجه روماني وقال: يا سلام صح، كرازة مرقس.

سأله الكاهن: هل تذهب للكنيسة كل أحد.

طبعاً، أنت يا قدس أبونا، ماتحكمش عليّ بهدوم الشغل، أنا بسرح بالعربية بجلابية، وبأروح الكنيسة بجلابية تانية زي الفل، بتناول، وبأشتري قربانه كمان، أنا وأمي، (وكانت القربانة في ذاك الزمان بخمسة قروش).

متى ستتزوج؟

ضحك روماني بصوت عال، وأزاح أكمامه الواسعة إلى كوعه وقال في نبرة حادة: يا قدس أبونا.. أتجوز منين، وأقعد فين أنا رأسمالي عربية ترمس وشويه قلل حاجة كده بعشرين جنيه وفرتها لي أمي، مين المسكينة اللي تقبلني على فقري.

واحدة زيك، من توبك، أبنه بائع متجول على قدك.

أحنى روماني رأسه، نظر إلى الأرض، كأنه يتذكر حباً قد أفلت منه، ولعل طيفا مر بخياله وقال دون أن يرفع رأسه: اللي زي حالاتي، عايزه واحد أحسن علشان تطلع فوق شويه، واللي أحسن مني مش ممكن تبص لي وأقل مني في الدنيا مفيش، يبقى الحل أية.

أتعلم صنعه يا روماني.

كبرت على أني أتعلم صنعة، أقولك يا قدس أبونا وديني بره يمكن أنفع وأعمل قرشين.

وبدا روماني في العودة إلى عربته، والكاهن صامت واجم... وقد شعر بأن روماني قد تألم من الحديث. نزل إلى الشارع وصاح بصوت عالي: ترمس وحمص عال العال، بدا يدفع العربة للأمام، التفت إلى الخلف ورفع رأسه وصاح: يا قدس أبونا، أبعتني أمريكا، هي دي الخدمة... الترمس والحمص.

وتمضي الأيام...



تبدو شمس الشتاء شاحبة هزيلة تخترق أشعتها السحب الداكنة في مشقة وعلى حياء، خرج صاحبنا الكاهن قبل الغروب بقليل، اشتدت رغبته في الاختلاء بنفسه وفي التأمل، وللغروب عنده وقع خاص، يعشق فيه هذا الهدوء الذي يلف به الوجود، يشعر بأن الغروب رسالة يومية، دعوة لكل البشر في تأمل رحلة الحياة ، ومشهد الغروب في القرية لا يختلف من ريف إلي ريف في أي بقعة من الأرض، الفلاحون بعد يوم عناء، ينسحبون عائدين إلي أكواخهم، يسوقون أبقارهم ومواشيهم أمامهم، يسيرون في بطء وتراخ، أنهم قليلو الكلام أقرب إلي الصمت والسكون فقد هدهم عمل مضني، تحمل الدواب أكوام البرسيم وحزم الحلبة الخضراء، قد سبقتهم زوجاتهم إلي الدار لإعداد وجبة عشاء، أغلب الظن أنها ليست وجبة دسمة بل هي وجبة تضم الخبز (المرحرح) من الذرة والجبن (القريش) وبعضاً من عسل النحل ولابد من البصل وشئ من الخضراوات، كالجرجير والطماطم والخص والفجل، ليس للحم الأحمر أو الأبيض مكان إلا في الأعياد والمناسبات الموسمية، وفاكهة الفلاح في أغلب الأحيان لا تتعدى البرتقال بأصنافه شتاءً، والبطيخ صيفاً، وربما التقط بضع حبات من الجوافة، أما البلح فهو السيد في بيت الفلاح، يحفظ صيفاً وهو طازج، وشتاءً وهو مجفف محنط، ومن ملامح عبقرية الفلاح المصري إتقان فن التحنيط، فالجبن القديم الذي يحفظ في جرار لا يخلو منه دار، والسمك يحنط ويطلق عليه (ملوحة) يفتح الشهية وهو بديل الكافيار عند الأغنياء، وأنواع المخللات كالخيار والفلفل الأخضر والليمون يتقن الفلاح

تحنيطها وحفظها في المش فلا تفسد ولا يقرب منها العفن، والخبز المصنـوع من الذرة يحنط وقد يبقى أسابيع لا يأتيه العطن، وبعض الخضراوات تحنـط كالملوخية والبامية، كأن كل شئ قابل للتحنيط.

أن التحنيط صورة من صور عشق الخلود والبقاء، شمل هذا الفـن كـل الحضارة المصرية، وما الكتابة بالحجر وألوان النحت وبناء المعابد والمقـابر إلا تعبيراً عن الإحساس برغبة في الخلود وعن الإيمان بأن الحياة لا تنتـهي عند حافة القبر وصمت الموت.

****

تسلل صاحبنا الكاهن مسرعاً إلي الحقول، مـا أروع مشـهد الخضـرة المنبسطة في سكون وجلال، ما أجمل الحقول في فصل الشتاء، حيـن تزهـر شجيرات البرسيم زهرتها الصفراء وتتوج شجرة الفـول بتاجـها الأبيـض، وتتمايل أعواد القمح وقد بدت نبته صغيرة، يا إلهي ما أروع إبداعك ما أبـهى أعمال عظمتك.. كأن الخالق يقول للكون كل فجر: كن. أستيقظ من جديد.

يمضي صاحبنا وحيداً ، لا يحمل معه إلا سبحته، يـردد بعـدد حباتـها الثلاث والخمسين، صلاة السلام للعذراء، يتمتم بها، يرفع صوته عند عبارة يـا ممتلئة نعمة، تتاثرت من حوله القبور أقرب إلي الكهوف الضيقة، لا فرق بينها وبين القبور الفرعونية التي تكتشف دوماً، أضاف الأقباط على القبور السـمات المسيحية، صليباً صنع من الطوب، أو آية من الإنجيل، كما أضاف المسـلمون على قبورهم هلالاً يعلو القبر صنع من الطوب أيضاً، ونادراً ما تكتب آيـات قرآنية عليها، يتوقف صاحبنا لحظات وسط القبور، يشعر برهبة، تشتد الرهبـة تتحول إلي خوف عنيف، لازالت خرافات الطفولة تحوم حوله، هـل يسـمعنا الموتى، هل تطوف الشياطين بالقبور، يملكه الرعب حين يلمح جمجمة عبـث بها الأطفال، أو قبراً وقع سقفه فبدت صناديق الموتى وقد أحاطت بها أنـواع من الحشرات، يناجي ضميره في عبارات موجزة، هنـا الحقيقـة الكـبرى لا

يختلف حولها البشر، هنا الموت نهاية كل حي، هنا يسقط الزيـــف والريـــاء، تصمت الشهوات ويكف نباح الغرائز، هنا يذوب الجسد ليعود إلي أصله، إلـــي أمه الطبيعة، إلي التراب الذي أخذ منه، هنا يتســـاوى الملـــوك والصعلـــوك والرؤساء بالمرؤوسين، هنا تنتهي المأساة البشرية وهنا أيضاً يزرع الرجاء في القيامة، ويدور سؤال في عقل صاحبنا، أغلب الظن أنه لازال يلح عليـــه فـــي المنام وفي اليقظة هذا السؤال: هل تستحق الحياة كل هذا الصراع المرير مـــن أجل المال، أو الشهوة، أو المنصب، أليس البشر مجانين إذ قضوا حياتهم فـــي حروب ونزاعات، والعمر لو يعقلون قصير.

****

ينسل صاحبنا من بين القبور، يحاول أن يستنشـــق الـــهواء النقـــي بيـــن الحقول، يحييه الفلاحون، يبتسم لهم، تستغرق رحلته ساعة أو أكثر من ساعة ، يقطف أحياناً ثمر الجوافة، يحب حباً شديداً مص قصب السكر، ولازال هـــذا الحب قوياً برغم تخلخل الأسنان والضروس، يرفـــض أن يشـــرب عصـــير القصب، فهذا أمر ملوث في عرفه، أن جمال عود القصب وبخاصة الصنـــف الذي يطلق عليه (خد الجميل) شديد الحلاوة، يقوم مـــص القصـــب بتنظيـــف الأسنان وتقويتها كما قال أحد الأطباء.

تغرب الشمس، تختفي الأشعة المبهجة، ينشر الظلام خيمته فـــي تـــؤدة، يعود صاحبنا إلي الكنيسة، مشهد القبور والموت والغروب من جهة، ومشـــهد الحقول النضرة وبسمة الفلاحين البسطاء من جهة أخرى، أمر يظل زاداً له في حياته الروحية.



ما أسرع الأيام، اقتربت الامتحانات، صاحبنا الكاهن في دراسته ولا يمل ولا يتخلف عن قراءة أو عن مراجعة الكتب رتب حياته بما يتيح له أن يؤدي واجبه راعياً مسؤولاً، وأن يؤدي واجبه طالباً للعلم طموحاً للدخول في الدراسات الجامعية، حلم صباه وقد كتب بخط يده عبارة وضعها نصب عينيه على طاولة أعدها كمكتب رص فوقه الكتب ، كتب هذه العبارة: سأحصل على الدكتوراه... سأكون أستاذاً بالجامعة

يذكر صاحبنا، في وضوح وجلاء أنها عبارة كان لها فعل السحر كلما قرأها، أليس الإنسان نسيجاً من أحاسيس وأفكار ووجدان؟ أليس الإنسان هو ما يفكر وما يطمح وما يحلم!!.

مضت به الحياة، تدفعه دفعاً، لا يستطيع لها رداً ، يجد بعض السلوى في زيارة قبور الراحلين، يتأمل ويغوص في تأمله يذوب في حب الطبيعة، ينسى همومه في ظل شجرة وارفة، يملأ صدره من هواء نقي يعبر فوق رؤوس سنابل القمح تكاد أن تلمسه لقد تعلم فن التأمل من صمت الريف، وتعلم فن التحليل من حوار البسطاء، ولمس قوة وسحر الجمال من بساطة الطبيعة وسكينتها، عاش بسيطاً، فقيراً، لكنه شعر بثراء الفكر والروح، وأغلب الظن أن هناك نوعاً من المعادلة النفسية، إذا أشتد تعلق الإنسان بالمادة، فرغ قلبه من الطاقة الروحية، وإذا امتلأت معدة الإنسان، استكان عقله، وإذا شبعت شهواته ظمأت روحه للقيم السامية النبيلة، وأغلب الظن أن الإنسان لا يملك أن

يكون صاحب ثراء مادي وصاحب ثراء روحي، فإما الله وتوابع الله وقيم الله وإما المال وتوابع المال وطموحات المال.

فوجئ صاحبنا الكاهن بخطاب موصى عليه، سلمه عامل البريد إلى شماسه صموئيل، فض الخطاب، قلبه يرتجف، خوف يطوف بعقله ، هزة عنيفة زلزلت كيانه وهو يقرأ بخط غبطة البطريرك اسطفانوس الأول "... يمكنك أن تعود إلى إيبارشيتك البطريركية وتكفي المدة التي قضيتها في بردنوها، ولك حرية الاختيار، أن تعود إلى إيبارشيتك أو أن تبقى مدة أخرى في إيبارشية المنيا..."

****

جلس على كرسي عتيق في حجرته، صامتاً، تتناوبه أحاسيس متعارضة، أحزان تشده، لقد تعلق قلبه بأهل القرية، وارتاحت روحة إلى البساطة والإيمان البريء، لكن عقله يشده إلى العاصمة حيث الجامعة ، ومحاضرات طه حسين، وشوقي ضيف، وسهير القلماوي، وحيث الكتب رخيصة الثمن على سور الأزبكية، لقد أتم دراسة الفلسفة واللاهوت في الكلية الإكليريكية بالمعادي فلماذا لا يغامر بدراسة التراث الإسلامي والغربي.

سرح بخاطره إلى عائلته، والداه يسكنان القاهرة في أحد الأحياء الشعبية، أخوته في دراستهم الثانوية ولا ينكر صاحبنا فرحة انطلقت في أعماقه، لا يستطيع أن يخفي سر نقله عن شماسه، الذي بكى بكاءاً حاراً، ويذكر في وضوح أن شماسه بكل نبل وسمو قال له: مستقبلك يا قدس أبونا مش في الأرياف أنت بتحب القراية والكتابة، وعليك أن تستكمل العلم وأنا واثق أنك ستخدم الكنيسة...

صاحبنا لا يحب البكاء، ولا يذكر إلا مرات قليلة سقطت فيها دموعه أنه عصي الدمع شيمته الكبر، وكأنه يبكي في داخله، ويحزن دون أن يبدو عليه

الحزن والأسى، ولعل يوم وداعة وخروجه من القرية كان أكثر الأيـــام ألمـــاً ودموعاً وحزناً، تجمع أهل القرية حول سيارة أجرة أتفق مع ســـائقها لتنقـــل أشياءه إلى بني مزار ليستقل القطار إلى القاهرة، ولم يكن يملك من حطام الدنيا إلا بضعة كتب وملابس قديمة وصفيحة عسل نحل.

ألقى نظرة الوداع على القرية، قبله أهلها، لا ينســـى حضـــن الشـــماس صموئيل الذي أصر أن يصحبه إلى بني مزار، لازال صـــدى بكـــاء النســـاء والرجال، لازال صدى أحزان قرية تتردد في أعماقه منذ أربعين سنة، اختفـت القرية رويدا رويدا، حاول أن يلملم أحاسيسه، ودع شجرة جوافة منتصبة علـى حافة الترعة على حدود القرية، كان يعشق الجلوس تحتها، كلمات الســـائق لا تشده، ولم ينتبه إلا على صوت صموئيل، وصلنا يا قدس أبونا.

في القطار اخرج رأسه من النافذة ودخل في حوار مع صموئيل، فـــي عينـــي شماسه حزن نبيل، في كلماته روحانية صافية، في حركاته ألم يخفي وتعاسة عـــابرة، بدا القطار في التحرك، رفع صموئيل يديه قائلا مع السلامة يا أعز الحبايب.

أنطلق القطـار... لم يشعر بالزحام حوله في الدرجة الثالثة، مـــا أعظـــم الإنسان، ففي قدرته أن يهرب من الواقع، أن يهرب من جسده من مجتمعه، أن ينطلق إلى آفاق واسعة، يقسم صاحبنا أنه ظل في القطار ثماني ساعات هـــي المسافة في ذلك الوقت بين بني مزار والقاهرة، يقســـم أنـــه نســـى الطعـــام والشراب، نسى الآلام والقلق، نسى الدنيا وما فيها، وأنطلق باحثا عن عالمـــه الجديد، هل سيكون في رعية في مدرسة، في دير.

أغلب الظن أن نوما عميقا، أنقذه من دوامة القلق والحيرة، أستيقظ علـــى ضجة المسافرين يستعدون للنزول في محطة القاهرة.

وبدأت مرحلة جديدة...

انتهت المذكرات في الأرياف.

مذكرات كاهن فى الأرياف

ولماذا لا ؟ لقد طبع فى ذهن القراء أن المذكرات يكتبها الساسة وأهل الحرب، ولكن تلك التي تروي مسيرة الحياة البسيطة وتصف أحوال البشر المجهولين من أهل القاع، نادرة أو قليلة.

وهذه مذكرات كاهن، رجل دين، ظل سنوات في قرية مصرية، عايش أهلها، تأمل أحوالهم، امتلأ بأحاسيس إنسانية، نبيلة، روحية، تدفق بها قلمه في بساطة وصدق، أختار أن يكتب عن أهل القاع، الذين لا يذكرهم أحد أو يجسد أحلامهم،

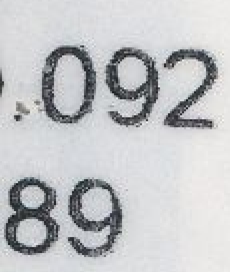
أنهم غالبية ساحقة؛ أنها ابتسامة في قلب الألم،

ورجاء في زحمة الأحزان، قلم متدفق، أحاسيس نب

وقائع صادقة لا زيف فيها تغمر الصفحات و الس

أصداء روحية صافية، بل وصف دقيق لحياة فئات مطحو

ليست مذكرات فحسب بل موقف روحي وقومي



لوجوس